

انقراضُ

العربية الفصيحة وهم أم حقيقة؟

للدكتور صادق عبد الله أبو سليمان

ووجهت العربية الفصيحة منذ من لغتهم.

القرن التاسع عشر بافتراءات واتهامات ابتغى مروجوها إضعاف إرادة أهلها في التمسك بها، وترويضهم للتحويل عنها إلى العاميات أو لغة بديلة يزعمون أنها ستخلصهم من التخلف العلمي والحضاري الذي يصمونهم به، وهم حين يفعلون ذلك يبتغون تقويض الهوية العربية وقطع صلتها بتراتها وتاريخها وتواصل أبنائها بصفة عامة. وقد جوبهت هذه المحاولات الهدامة؛ إذ هب أبناء العروبة من علماء ومتقنين ومفكرين وكتاب وغيرهم فرادى وجماعات لنجدة هويتهم اللغوية من الأخطار التي تتهددها، والمؤامرات التي يحوكها الطامعون في السيطرة والاستغلال، واستطاعوا بتوفيق من الله ﷻ، وتكاتفهم إبطال مآرب الأعداء في النيل

وفي صدر العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، أو إن شئت من الألفية الثالثة تهب علينا زوبعة مكرة غادرة يرغب مثيروها في شغل الفكر العربي وحصره في الرد والدقاع، بدلاً من الانطلاق إلى آفاق جديدة يكون الإبداع ميسمها.

وتتمثل هذه الزوبعة في زعم أن العربية الفصيحة سيكون مصيرها الانقراض، وهي فريسة اختار مروجوها بعناية مكاناً يرمز إلى وحدة العرب؛ إنه الجامعة العربية بيت العرب جميعهم؛ ليكون الهجوم قوياً، ويصل إلى هدفه بالضربة القاضية - لا سمح الله -، وكذلك كان اختيارهم لبدء الهجوم وقتاً تبدى فيه الحال العربي مهلهل النسيج؛ إذ شهدنا كموناً للدعوات الهدامة وأصحابها وقت أن هبت

الشعوب العربية لتحقيق عزتها بالتحريرو
والاستقلال ولاسيما في النصف الثاني
من القرن العشرين؛ إذ أمسى ما أذاعوه
بشأن قصور العربية وخططهم بشأن
حرف لسان الأمة إلى العامية أو لغة
أجنبية من التاريخ المستهجن خبره.
أقول:

نسي هؤلاء الهدامون أن للباطل
جولة سرعان ما تزول، وأن الحق
ثابت لا يزول، وأن الغلبة لأصحابه
طال الزمن أم قصر؛ وقد أجادت
العرب حين قالت: "دولة الباطل ساعة،
و دولة الحق إلى قيام الساعة"، فستعود
شمس العدالة مشرقة بنور الحق،
وانحسار الباطل؛ فالدنيا دول.

وإننا نوضح في هذا المجال أنه
لا يستطيع أحد - أيًا كانت قوته - أن
يفرض على غيره تغيير لسانه، ونحن
لا نتوقع البتة انقراض العربية
الفصيحة، بل نتوقع لها اتساعاً في
مجالات الاستعمال، ونمواً في
المفردات؛ فمتى امتلك الإنسان
المضمون فيكون قادراً على إيجاد

لفظه الدال عليه من لغة قومه.
وتبغى هذه الدراسة الوقوف عند
هذه القضية الهدامة، الفاشلة نتائجها
بعون الله، وتسليط الضوء على مناحي
ضعفها، وجوانب القوة التي ستحفظ
العربية الفصيحة من الإصابة بسهام
هذه المزاعم المغرضة، وتعيد لها
المكانة العالية التي نرجوها لها
ولأبنائها.

القول بانقراض العربية

(٢)

أثار بعض الدارسين والمفكرين
في هذه الأيام مسألة انقراض كثير من
اللغات في العالم، ومنها اللغة العربية،
ومن المحافل التي أثاروا فيها
افتراضهم هذا المؤتمر العالمي الذي
نظمه المجلس العربي للطفولة
والتنمية في مقر جامعة الدول العربية
في المدة من ١٧ - ١٩/٢/٢٠٠٧م
حول "لغة الطفل العربي في عصر
العولمة"، وشارك فيه أكثر من خمسمئة
باحث ينتمون إلى تسع عشرة دولة
عربية وإلى عدد من الدول الأخرى.

أن تحلّ - في المستقبل القريب -
اللهجات المصرية والعراقية والمغربية
إلخ محلّ اللغة العربية الفصيحة التي
ستقرض كما انقرضت اللغة اللاتينية
في أوربا واستُعيض عنها بلهجاتها
الإيطالية والفرنسية والإسبانية
والبرتغالية... إلخ. التي صارت لغاتٍ
مستقلّة".

وإنّ من أدلّة هذه المقالة على
تكهن انقراض العربية:
*** الازدواجية:

إذا كانت الازدواجية موجودةً
في لغات البشر بصفة عامّة فإنّ
خطرَها على بقاء اللغة الرسمية
يرجع - كما يقول اللغويون - إلى مدى
قرب اللهجة أو بُعدها من هذه اللغة؛
فكلما زاد البون بين نظاميهما اقترب
خطرُ انكسار اللغة الرسمية أمام لغة
السليقة، والعكس بالعكس؛ وفي هذا
المقام كانت الإشارة إلى أنّ هناك فرقاً
بين الازدواجية في اللغة العربية
والازدواجية في بقية اللغات
العالمية...؛ بمعنى أن الفارق بين

وقد عرضَ الدكتور علي
القاسمي لأهمّ ما تُدوّل في هذا
المؤتمر، وذلك في مقالته: "انقراض
اللغة العربية خلال القرن الحالي"، وقد
سبقت الإشارة إليها في حواشي البحث.

وكما يتضح فإنّ عنوان هذه
المقالة تألّف حروفه في كلمات تتكهن
أو تُخبر عن مصير العربية في الألفية
الثالثة من الميلاد، وكان مما نقلته هذه
المقالة عن المؤتمرين نصّاً من تقرير
لمنظمة اليونسكو تبين فيه أنّ ثلاثة
آلاف لغة تموت هذا القرن ومنها
العربية"، وأنّ الإحصائيات العلمية
تشير إلى "أن ما بين مئتين وخمسين
إلى ثلاثمئة لغة تنقرض سنوياً بفعل
سرعة التواصل والميل إلى استعمال
اللغات العالمية الأكثر فاعلية. وهذا ما
يسميه بعضهم بالغزو الثقافي أو
اللغوي. وبعملية حسابية بسيطة يتبيّن
لنا أن القرن الميلادي الحالي سيشهد
اندثار حوالي ثلاثة آلاف لغة، أي
نصف لغات العالم".

ويذكر أنّ اللغويين... يتوقعون

اللهجات الإنجليزية وبين اللغة الإنجليزية الفصيحة، مثلاً، هو فارق ضئيل جداً لا يحول دون الفهم، على حين أن الفارق بين اللغة العربية الفصحى ولهجاتها فارق كبير جداً؛ الأمر الذي يجعل خطر الانقراض يتهدد العربية.

وأوضحت المقالة أن كثيراً من الباحثين ذكر "في المؤتمر أن السياسات اللغوية للدول العربية تميل إلى تفضيل اللهجات العامية واللغات الأجنبية في مجالات الحياة المختلفة كالإعلام والتعليم، وتشجع العامية في الإذاعة والتلفزة، ولا تمنعها أو تقلل منها، وأن هذه الدول - كما يقول الدكتور القاسمي - لا توجد لديها "سياسات لغوية معلنة... ما عدا ما ورد في دساتيرها من أن العربية هي اللغة الرسمية للبلاد، ولكن ليس ثمة قوانين أو أنظمة لتفعيل ذلك؛ وإذا ما أضفنا إلى ذلك انتشار الأمية، وانخفاض نسبة القراءة، وانحسار المعرفة في المجتمعات العربية" أدركنا - كما جاء في المقالة -

أنها عوامل مهمة كانت وراء جعل لغة الكتاب^(١) العربية الفصيحة لغة غريبة نادرة الاستعمال، يصعب استيعابها فلا يقبل المواطنون على القراءة، وذلك بخلاف دول أخرى كالدول الغربية التي اتبعت، وتتبع دائماً سياسات لغوية تفرض استخدام اللغة الفصيحة المشتركة في التعليم والإعلام والإدارة والتجارة وجميع مجالات الحياة، فيعتاد المواطنون على سماعها وقراءتها فيتمكنون منها وتقترب لغتهم الدارجة من اللغة الفصيحة".

وإذا كنا نعترف بوجود هذه الازدواجية في وطننا العربي فإننا نزعم أن كثيراً من الشعوب لا تسلم منها؛ فهي ظاهرة إنسانية تتمشى وطبائع اللغات في التغير؛ لذا فإن العرب لم يخرجوا عن هذا القانون البشري أو إن شئت فقل: القانون اللغوي في لغتهم؛ الأمر الذي يعزز جانب التآمر عليهم في التهويل من خطورة العامية أو اللهجة على لسانهم، هذه الظاهرة التي لم يخل منها عصر

باختلاف المستويات؛ وذلك على النحو الذي نلاحظه عند تفحصنا للغة الأطفال والشباب والكهول والشيوخ؛ وعوام المجتمع من صناع وحرفيين وفلاحين وتجار؛ وموظفين ومتقنين ومتعلمين ورجال إعلام وسياسة ومفكرين وهلم جرا.

إنَّ تصفُّحنا لما جاء في مصنَّفات علماء اللغة العربية سيكشف عن إدراكهم لهذه النتائج اللغوية الحديثة؛ وذلك حين صنَّفوا لغة القبائل العربية بالنسبة للفصاحة وما يصلح منها للاحتذاء والتقليد؛ فقد كتب ابن فارس فصلاً جعله بعنوان "باب القول في أفصح العرب" (٢) تحدَّث فيه عن فصاحة لغة قريش واصطفائها لما أجمعت عليه العرب في لغاتها؛ فلا نجد فيها "عننة تميم، ولا عجرية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس، مثل: (تَعْلَمُونَ) و(نَعْلَم)، ومثل: (شَعِير) و(بَعِير)". وكذلك عقد باباً أشار فيه إلى وجوه اختلاف كلام

من عصورهم حتى في أزهى أيام فصاحتهم سواء في الجاهلية أم بعد نزول القرآن الذي أذكى ظاهرة توحّد العرب على لغة مشتركة هي اللغة الفصحى.

ولعلَّ ما يُرجَّح جانب المؤامرة على العرب ولغتهم أننا نجد دولا لا يستلم أهلها من تعدد اللغات، ولا يقال عنها ما قيل في العربية؛ الأمر الذي يضع علامات استفهام قوية على الذين يتخذون من ازدواجية اللغة عند العرب ذريعة للهجوم على فصاحتهم الموحدة لألسنتهم، واتهامها بالقصور، وإذاعة البلبلة الفكرية في أهلها برميها بإشاعات انقراضها.

ورداً على هؤلاء فإننا نذكرُ بنتائج الدراسات اللغوية الحديثة التي قال أصحابها بوجود مستويات لأية لغة؛ كالمستوى الرسمي، أو إن شئت فقل المستوى الفصيح الذي تتحرى فيه الدقة، والمستوى العام السائد وتنوعاته على ألسنة أهل اللغة في بيئاتهم، واختلاف ملامحه أو خصائصه

العرب^(٣)، وآخر جعله بعنوان "باب اللغات المذمومة"^(٤). وعقد ابنُ جَنِّي فصلاً علل فيه لعدم الأخذ عن أهل المدن، وجعله بعنوان "باب في ترك الأخذ عن أهل المدَر كما أخذ عن أهل الوَبَر"^(٥)، وقد جعلَ "علة امتناع ذلك ما عَرَضَ لِلْغَاتِ الحاضرةِ وأهلِ المدَر من الاختلال والفساد والخلط". وعَقَدَ السيوطي باباً بعنوان: (في كلام العرب، وأسماء القبائل التي أخذ عنها والتي لم يُؤخذ، وتوجيه ذلك)^(٦).

ووجدنا من اللغويين المحدثين مَنْ قامَ في دراساته بـ "ردّ بعض ظواهر اللهجات الحديثة إلى ما يُناظرها من اللهجات العربية القديمة"^(٧)، وذلك على النحو الذي وجدناه عند حفني ناصف في دراسته: "مميزات لغات العرب وتخريج اللغات العامية عليها"، ومحمد علي الدسوقي في كتابه: "تهذيب الألفاظ العامية"... إلخ.

وإذا كانَ القائلون في انتصارهم لمزاعمهم ضدَّ العربية الفصحى

يحتجونَ ببُعْدِ العاميةِ أو اللهجاتِ الدارجةِ عن الفصحى، وانتشارِ العاميةِ أو اللهجةِ على ألسنةِ العربِ في أكثرِ مظاهرِ تعاملهم اليوميِّ فإننا نرى أنَّ الحُكْمَ على تباعدِ العربيةِ الفصحىِ أو قُربها من لهجاتها في الدولِ العربيةِ يحتاجُ إلى دراساتٍ علميةٍ تبرهنُ عليه، ولا يكونُ مجردَ حكمٍ مبنيٍّ على الظنِّ، وقد قرأنا اتهاماً ببُعْدِ الفصحىِ عن لهجاتها الدارجةِ إِيَّانَ الدعوةِ إلى العاميةِ؛ فهو اتهامٌ مكرور، ووجدنا من علماءِ العربيةِ من تصدَّى له، فأوضحَ بطلانهُ على النحو الذي أوضحناه مفصلاً في مقامِ دراسيٍّ آخر^(٨).

أما مسألةُ انتشارِ العاميةِ أو اللهجةِ الدارجةِ فهذا أمرٌ لا يُخالفُ طبائعَ البشرِ بصفةٍ عامةٍ، وقد قال به لغويونَ ورَدَ ذِكرُ بعضهم في مقالةِ القاسميِّ، ولكننا نقولُ أيضاً: إنَّ هذا الانتشارَ للعاميةِ يُقابَلُهُ في المقابلِ تعاملٌ بالفصحىِ في أكثرِ المقاماتِ الرسميةِ: في المدارسِ والمعاهدِ والجامعاتِ والإذاعاتِ والمساجدِ وغيرها؛ الأمرُ

وسلطتها الاقتصادية وهيمنتها الدولية... فتلقى هذه اللغة الأجنبية الترحيب والتعظيم في بلداننا، وتُهيأ لها الرياض والمدارس والجامعات الخاصة المتطورة.

وتعقد المقالة - مستندة إلى

بحوث المؤتمرين - مقارنة بين شعوب تمسك أهلها بلغتهم القومية في مجالات حياتهم التعليمية وغيرها، والشعوب العربية التي تقبل النخبة فيهم على تعليم أبنائها في مدارس أجنبية أو مدارس خاصة، ذات مناهج أمريكية أو بريطانية أو فرنسية أو إسبانية أو إيطالية إلخ، وتقوم الجامعات والمعاهد العليا بتعليم العلوم والتقنيات... باللغة الأجنبية: الإنجليزية في بلدان المشرق، والفرنسية في البلدان المغاربية.

ويظهر للمطلع على هذه المقالة شدة قتامة الصورة التي تُقدّمها لحال العربية في الوطن العربي، ولكن المتمعن في النماذج التي جعلتها مثالا للنفور من لغتنا القومية، والإقبال على اللغة الإنجليزية أو الفرنسية قد يتبين له

الذي يجعلنا نطمئن على مستقبل عربيتنا الفصيحة ذات التاريخ الطويل المدعوم بنجاح العربي دوماً في الانتصار لها عند الشدائد، ورسوخ عقليته على الافتخار بها، وعدم التخلي عنها.

*** الثنائية اللغوية:

وقوامها لغة البلاد القومية ولغة وافدة أجنبية، وليس من شك في أن صراع العربية الفصيحة واللغات الأجنبية ولاسيما الإنجليزية والفرنسية في العصر الحديث بات واضحاً لا يمكن إنكاره؛ سواء في المحافل العلمية أم في لغة الحياة العامة في برامج إذاعية وتلفازية، وأسماء الفنادق ودور الخيالة والمحلات التجارية، ورياض الأطفال... إلخ.

وفي هذا المجال أشارت المقالة إلى أن الثنائية اللغوية في بلداننا تشكل صراعاً غير متكافئ بين لغة قومية تلقى من أهلها أصناف الاحتقار والإهمال والتهميش، بل والتدمير، وبين لغة عالمية وافدة بكل سطوتها الثقافية

أنها من طبقات فتن أهلها بالثقافات الأجنبية، أو ثريّة ترى في الإقبال على تعلّم اللغات الأجنبية واكتساب ثقافتها تميّزاً حضارياً، وتحقيقاً لمكاسب دنيوية زائلة.

وإنّ إشارة بعض المؤتمرين إلى ما يعانيه أبناؤهم من ضعف في تحصيل العربية الفصحى، أو صعوبة في تقبلها قياساً إلى اللغة الأجنبية التي هيئوا لتقبلها، وأريد لهم أن ينبغوا فيها -ليعكس نفسية معينة قد تكون بهرت بالآخر وتأثرت بأفكاره، أو انعكس حال أبنائها عليها فجعلها- هي الأخرى- تنفر من العربية الفصحى، فتدفع إلى قول ما قالت في انقراض اللغة العربية الفصحى، وإن شئت فقل: إنها عقدة النقص التي يرى المصابون بها في الغريب الوافد عنوان التقدم، وأنّ لحوقهم^(٩) به يتطلب السير في ركاب أهله، ومنه اللغة؛ وهو وهم برهننت على زيّفه كثير من الشعوب التي نهضت وارتقت بلغتها.

وإذا كان لنا أن نستفيد في هذا

المقام من علماء النفس فإننا نجد في مداخلة الدكتور أحمد عكاشة- رئيس الجمعية الدولية للطب النفسي- في المؤتمر المذكور ما قد يدعم رأينا، إذ ذكر: "أنّ التعدد اللغوي في الطفولة قد يسبب اضطرابات نطقية ونفسية وعقلية، وأنّ الأطفال العرب الذين يتلقون تعليمهم في مدارس أجنبية أو بمناهج أجنبية يميلون إلى الشعور بالنقص واحتقار الأهل والشعور بالاغتراب الثقافي في بلدانهم، وأنّ هذا النوع من الاغتراب هو من أهم أسباب هجرة الأدمغة من بلداننا إلى الغرب".

وإذا كان التأثير بالآخرين قد يدفع بعض الناس إلى التّكبر للأصول فإننا- وبلغة علماء النفس- نقول: إنّ لكل فعل معاكس أو مُضادّ ردّ فعل مقاوم؛ الأمر الذي عايشناه- من قبل- في مقاومة الدعوات إلى استعمال العامية، أو اتخاذ لغة أجنبية بديلة عن العربية الفصحى؛ إذ هبّ الغُيرُ فرادى وجماعات لتعزيز ثباتها في أهلها، والدفاع عنها بوصفها من أهمّ روابط

تحفيظ القرآن، والتدريب على الخطابة وبعض برامج الإذاعات المسموعة التي يشارك فيها الأطفال والشباب خاصة.

وكذلك فإن مما نراه يصب في خانات تعزيز بقاء العربية الفصيحة، وموصلاً إلى الاقتناع بخروجها عزيزة عصية على الفناء تمعننا فيما تفعله الجامعات وكثير من أساتذة الجامعات والمعاهد العالية لصالح تنمية العربية الفصيحة والمحافظة على استمرارها تنبض بالحياة، وفيما تقوله مؤتمرات علمية ولغوية أخرى أدرك علماءها ومفكروها أسرار بقاء العربية الفصيحة رغم كل ما حيكت ضدها من مؤامرات، وآمنوا بقدرتها على الصمود في وجه التحديات.

ولست أشك لحظة في قدرة عربيتنا الفصيحة على البقاء والاستمرار في الاستجابة لمتطلبات أهلها منها في التعبير عن المستجدات العلمية والتقنية والحضارية والفكرية، ولست أشك أيضاً في قدرة هؤلاء الغير من معلمين في المدارس الرسمية

الأمة، والحث على التمسك بها، وتبيان أهميته ومخاطر الاستجابة للدعوات الهدامة لها، وذلك بعقد ندوات ومؤتمرات وتقديم دراسات تبحث في خصائصها، وتعمل على مداواة ما اعتل منها وتنميتها، وتهيئة الأجواء لإذاعتها قوية سليمة على الألسنة، وتقارنها بغيرها من اللغات بيانا لتمايزها، وأن ما يصمون بها من عيوب تعاني مثله أو أكثر منه لغات ذوي الأفكار الهدامة والمآرب الماكرة.

ولعل تجوالنا في المدارس الرسمية في الأرياف والبادي وكثير من مدارس مدننا الكبيرة والصغيرة ما يجعلنا نطلع على صورة حية مبشرة تطمئننا على مستقبل عربيتنا الفصيحة، وتدحض مزاعم القائلين بانقراضها، حيث سنرى تفوق كثير من أبنائنا في تحصيلها، وقدرة جموع منهم على الإفصاح فيها، وتمايز بعضهم بامتلاك فنون القول فيها من شعر وخطابة وقصة وما إلى ذلك، وهو الحال الذي سيتعزز في الاطلاع على ثمار مراكز

وذلك باختصاصها لغةً للقرآن الكريم - لا ريب أنه - سيجعل سهام القتل تخطئ مراميها فيها، وسيهيئ لها من جنود الحق وأنصاره سدةً قادرين بعونه على تثبيت حقها في الوجود، ودعمها، وترسيخ جذورها في مناحي الحياة المتنوعة، ولن يخلف الله وعده في نصره خلفائه المؤمنين، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (١٣).

وكذلك فإننا نؤمن بأنه كلما اشتدت الأزمة اقترب فرج الله، وصدق الله العظيم الذي يقول بياناً لنصرة رسله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَلُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِّنَّا فَجَنَّىٰ مِّنْ نَّشَأٍ وَكَأَيُّ زُرٍّ بِأَسْأَعِنَ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ * لقد كان في قصصهم عبرة لأولئك ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (١٤).

وإذا كان هذا هو إيماننا المطلق فإن هناك من ينفي دور الأثر الديني في منع انقراض العربية الفصيحة؛ الأمر الذي سنفصل الحديث في مناقشته وبيان بطلانه في سطور أخرى

والخاصة، وأساتذة الجامعات والعلماء والمفكرين والأدباء ورجال الدين على غرس حب اللغة العربية في مريديهم على امتداد الوطن العربي: مشرقه ومغرب، وإني أومن بوجود هؤلاء في مختلف الأزمنة والأمكنة.

ولست أشك البتة أيضاً في أن الله الخالق القادر الهادي إلى سواء السبيل، الذي بيده ملكوت السموات والأرض، والقائل للشيء كن فيكون - لقادر على لجم كيد الكائدين لها، وتهيئة الأجواء التي تعيد للعربية الفصيحة عزتها. ﴿وَتَمَكُّرُونَ وَتَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرُورِينَ﴾ (١٥).

﴿وَالَّذِينَ يَتَمَكَّرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُأُوكُمْ هُوَ يَوْمٌ﴾ (١٦)، وسبحان الله القائل مبيناً نصره لعباده: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧) ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فَمِنْهُمْ شُرَكَاءُ تَتَّبَعُونَ﴾ (١٨) ﴿رِضْوَانُ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٩).

إن تشريف الله ﷻ للعربية،

من هذه الدراسة.

مدى أثر القرآن الكريم في حفظ اللغة العربية الفصيحة

(٣)

وفي إطار الحديث عن زعم انقراض اللغة العربية تؤد الدراسة الوقوف عند قضية مهمة - أثرت في المؤتمر المذكور -، وهي: "مدى أثر القرآن الكريم في حفظ اللغة العربية الفصيحة"؛ إذ ربط جمهور علماء العربية بين العربية الفصحى والقرآن المجيد، وأكدوا أن هذه العلاقة بينهما أضقت على هذه اللغة صفة القداسة، وجعلتها في مأمن من الاندثار أو الانقراض.

يقول الدكتور القاسمي في مقالته: "يشعر كثير منا - نحن المسلمين - بأن اللغة العربية التي يبلغ عمرها ألفي عام تقريباً والتي أنزل الله القرآن بها هي لغة مقدسة، ولا يمكن أن تنقرض كبقية اللغات، ويستدل هؤلاء المتفائلون على بقاء اللغة العربية بقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾" (١٥).

وكما هو واضح فإن هذا النص يُثير

قضيتين توضحان مدى أثر علاقة العربية بالقرآن في مسيرة الحفاظ على العربية الفصيحة، وهما: القول بقداسة اللغة العربية، وهل تكفل الله ﷻ بالحفاظ على "الذكر" يشمل اللغة العربية التي نزل بها أيضاً، وقد أبان القاسمي موقف المؤتمر من هذا كله في هذا العنوان الصحفي المؤثر: "فتوى جديدة: العربية ليست مقدسة، ولم يضمن الله حفظها"، وهو ما تبغي الدراسة مناقشته في السطور التالية: القضية الأولى - قداسة اللغة:

نسبت مقالة القاسمي القول بعدم قدسية اللغة العربية إلى فضيلة مفتي الديار المصرية، فقالت: "ولكن المفاجأة الصارخة هي أن هذا المؤتمر أفتى بعدم قدسية اللغة العربية؛ وقد وردت هذه الفتوى في البحث القيم الذي قدمه في الجلسة الأولى للمؤتمر فضيلة مفتي الديار المصرية الشيخ الدكتور علي جمعة، الذي أوضح أن القرآن الكريم لا يشتمل على جميع اللغة العربية من جذور وتراكيب ومعان، وإنما على نسبة ضئيلة منها: (أقل من ٣٠٪ من الجذور العربية، مثلاً)، وإن تلك النسبة الصغيرة في سياقاتها

ودلالاتها المحددة هي التي تستمد قدسيّتها من القرآن الكريم، وأمّا غالبية اللغة العربية فليست مقدّسة، ولهذا فهي عرضة للتغيير، وطبعاً للانقراض كذلك".

وكما هو واضح فإنّ التّمعّن في نصّ فتوى فضيلة المفتي - كما ورد في المقالة - يُظهرُ أنه يفرّق بين عربيّتين: عربية القرآن، وهي ذات نسبة ضئيلة في مجموع العربية الفصحى تتمثّل فيما ورد في القرآن من جذور وتراكيب ومعانٍ، وهي التي - كما يرى فضيلته - تستمدّ قداسيّتها من القرآن الكريم، وعربية غير القرآن، وهي كلّ ما تكلمت به العرب ولم يرد في القرآن، وهذه ليست مقدّسة!، وكما هو واضح فإنّ فضيلته حين ألّمح إلى ضالة نسبة جذور العربية التي يراها مقدّسة يريد أن يوضّح بأنّ النسبة الباقية منها - وهي النسبة الكبيرة التي تزيد عن ٧٠٪ من العربية - ليست مقدّسة، وأنّه لما كان أمرُ العربية كذلك فهي قابلةٌ للتغيير، وطبعاً للانقراض كذلك".

وسنقف في السطور التالية عند هاتين المسألتين: مسألة تجزئة اللغة، ومسألة كمية عربية القرآن، والنتيجة التي أريد الوصول إليها.

أولاً - مسألة تجزئة اللغة:

لست أدري، هل يمكن تجزئة اللغة الواحدة أو تصنيفها إلى مقدّسة وغير مقدّسة؟ وإذا قال قومٌ بجواز ذلك، فهل ما جاء في القرآن الكريم من لغة الجاهليين أو الكفار يمكن النظر إليه من منظور أنه أسلم أو تأسلم؟ لمجيئه في القرآن الكريم، وأصبح مقدّساً، وظلّ غيره على حاله، ولو استعمله الرسول ﷺ في شرحه لمعاني القرآن، وأحاديثه الشريفة، وخطبه البليغة وغير ذلك من المواقف الدينية، أو استعمله المفسرون والشراح في تفاسيرهم للقرآن الكريم وشروحهم الدينية، وأين موقع لغة الشعر العربي الذي قيل فيه: إنه ديوان العرب، وفيه تفسير كتاب الله من القداسة أو عدمها؟، وهل تجوز تجزئة لغة الشعر العربي الجاهلي بمعانيها الهائلة في أودية

لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُذَمِّرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرِي
لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٠﴾، وما حديث "أُنْزِلَ الْقُرْآنُ
عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ" - فيما نظن - إلا دلالة
واضحة على أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانِ
العرب؛ لِيَفْهَمَهُ الْعَرَبُ جَمِيعُهُمْ عَلَى
خِلَافِ لُغَاتِهِمْ.

وكما هو واضح فقد أشار القرآن
الكريم إلى العرب واللسان العربي بصفة
عامة، ونحن نرى أَنَّ اللُّغَةَ - آيَةً لُّغَةً - كُلُّ
لَا يَتَجَزَّأُ، لَهَا خِصَائِصُهَا وَأَنْظُمُهَا
الْمُطَرَّدَةُ، وَإِنَّ أَيْ وَصَفَ لجزء منها -
إِجَابًا أَوْ سَلْبًا - لَا بُدَّ أَنَّهُ سَيَنْعَكِسُ عَلَى هَذَا
الْعُمُومِ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ هَذَا الْجُزْءُ؛ وَبِنَاءً
عَلَى هَذَا النَّظَرِ، وَإِذَا آمَنَّا بِأَنَّ هُنَاكَ لُغَةً
مَقْدَسَةً وَأُخْرَى غَيْرَ مَقْدَسَةٍ فَإِنَّ الْقَوْلَ
بِقِدَاسَةِ جُزْءٍ مِنَ اللُّغَةِ يُمَكِّنُ أَنْ يَطْرُدَ
لِتَتَلَبَّسَ بِهِ اللُّغَةُ كُلُّهَا، وَإِنَّ قَبُولَ اطِّرَادِ
قَدْسِيَّةِ هَذَا الْجُزْءِ الْخَاصِّ مِنَ اللُّغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ الَّذِي شَكَلَ لُغَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
لَيُمْكِنُ تَعْمِيمُهُ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا؛
الْأَمْرُ الَّذِي قَدْ يَدْعِمُهُ إِجْمَاعُ عُلَمَاءِ
الْعَرَبِيَّةِ - فِي مُخْتَلَفِ بَيِّنَاتِهِمْ وَأَزْمَانِهِمْ -
عَلَى الْقَوْلِ بِأَثَرِ لُغَةِ الْقُرْآنِ فِي تَهْذِيبِ
لُغَاتِ الْعَرَبِ، وَتَعْزِيزِ تَلَاقِيهَا مَوْحَدَةً

كثيرة، فما أسهم منها في تفسير القرآن
فَسَتَمْتَدُّ لَهُ أَذْيَالُ الْقِدَاسَةِ، وَلَوْ كَانَ
نَاضِمُوهُ مِمَّنْ أَدْرَكُوا الْإِسْلَامَ وَلَكِنْهُمْ لَمْ
يُسَلِّمُوا، وَمَا لَيْسَ لَهُ مِنْ هَذَا الشَّرَفِ
نَصِيبٌ فَسَيَبْقَى فِي إِطَارِهِ الْجَاهِلِيُّ، وَلَوْ
كَانَ قَائِلُهُ مِمَّنْ أَسْلَمَ، وَأَيَّدَتْهُ رُوحُ الْقُدُسِ
وَهُوَ يَنَافِخُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ؟!.

وَأَيًّا يَكُنِ الْأَمْرُ فِي هَذِهِ الزَّاوِيَةِ مِنَ
الرَّأْيِ بَلِ الْفَتْوَى فَقَدْ أَوْضَحَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ
أَنَّ اللَّهَ يَرْسُلُ الْأَنْبِيَاءَ كُلًّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ دُونَ
تَجْزِئَةٍ أَوْ تَصْنِيفٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٦)،

وَأَوْضَحَ ﷻ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ قُرْآنِهِ
الْكَرِيمِ أَنَّهُ أُنْزِلَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، وَمِنْ ذَلِكَ
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَّلَهُ
الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ
عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١٧)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ
فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١٨)، وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْلَمُونَ﴾ (١٩)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ
كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ

في اللغة الفصحى، وإنه كتاب حياة ودين يهدف إلى تنظيم البشر في مختلف الأزمنة والأماكن.

وإذا كانت مسألة تعميم الجزء على الكل، أو الخاص على العام مقبولة فإن تصدير القاسمي لنص الفتوى الذي عمم فيه عدم قداسة العربية - بخلاف متن الفتوى الحرفي - يمكن أن يكون عند من يؤمن بمضمونه مقبولا أيضا من ناحية هذه القاعدة المنطقية؛ ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو:

هل القول بعدم قداسة اللغة العربية رأي بل فتوى يمكن أن تحظى بالقبول أو الارتياح؟
أقول:

نتساقق هذه الفتوى ورأي علماء اللغة "Linguists" الذي ينصون فيه على عدم تفضيل لغة على أخرى، وإذا كنا نقرأهم في هذا المضمون، فإننا نقول معهم بعدم التفريق بين اللغات؛ فليست هناك لغة أفضل من لغة، وجميعها في ميزان البحث العلمي

سواء.

ومع هذا فإننا نخالف من نفى عن العربية صفة القداسة، رغم أن القرآن لم ينص على قداسة لغته؛ لأننا نفرق - في هذا المقام - بين قداسة في ذاتها، وقداسة مكتسبة لأي سبب من الأسباب، وعليه فنحن لا نرى أن هناك لغة مقدسة في ذاتها، والعربية كغيرها من لغات العالم ليست مقدسة في ذاتها، وإنما اكتسبت هذه الصفة من اختيار الخالق لها لتكون لغة كتاب دين الإسلام الذي أنزله للعالمين كافة.

إن اكتساء القرآن الكريم - هذا الكتاب المقدس الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٢١)

المُعْجَزُ في ألفاظه وتراكيبه ومعانيه - بحلل اللغة العربية شرف هذه اللغة، وأكسبها هذه الهالة العظيمة من التقديس، إنه الإحساس الديني الذي لا يهزمه إحساس آخر! تلبسه المسلمون وهم يتلون كتاب ربهم ﷻ، وخلعوه على لغته التي جاء شرفها من شرفه؛ الأمر الذي نلمسه في حياتنا

ولاسيما في دواوين العرب ومجالسهم، حيث ترى الشيخ أو رئيس القوم أو كبير الجلسة يقول مثلاً: إنَّ احترامك من احترام فلان، أو لولا فلان لما جالسناك، وما إلى ذلك من التعبيرات التي تقرن أمرَ إعزازٍ زيدٍ أو احترامه لأجل عمرو^(٢٢). ثم إنه إحساس دينيٍّ يُمكن أن يجد له مثيلاً في لغات أخرى اقترنت بكتاب دينيٍّ؛ فها هم الهنود مثلاً رأيناهم يَنكَبونَ على دراسة لغة كتابهم المقدس "الفيدا"؛ ويهتمون بضبط نصوصه، وتحديد طرائق قراءته^(٢٣)، وهو ما فعله المسلمون من العرب وغيرهم في دراستهم للغة القرآن الكريم، وكذلك اليهود الذين قدَّسوا لغتهم العبرية، وقالوا: إنها لغة الجنة... إلخ.

إنَّ وصَفنا للغة ما بأنها لغة علمية أو صناعية أو أدبية إنما هو إحساس ينبع من قدرتها المتميزة في التعبير عما برع فيه أهلها^(٢٤)؛ فلم تُخلق اللغة لهذه الصفة أو تلك، وإنما تميَّزت بتعبيرها عن المضمون الذي

جعلها تكتسب ما وُصِفَتْ به عند الناس ولاسيما العلماء والخبراء، وإنَّ أية لغة في العالم يُمكن أن توصف بهذه الصفة أو تلك لو هيَّا أهلها لها من الظروف ما يُمكنها من امتلاكها.

وفي هذا السياق نقول: إنَّ اللغة العربية لا تحمل في ذاتها شيئاً من القدسية، ولكنَّ المسلمين - ونحن منهم - يؤمنون بقداسة اللغة العربية لكونها لغة كتابهم المقدس، فالقدسية التي نقول بها - في هذا المقام - لا تعني قداسة الأصوات أو الكلمات أو الجمل في ذاتها، ولكنها القدسية التي اقترنت بقدسية التنزيل: هذا الكتاب الذي جاء مُعْجِزاً بلفظه ومعناه؛ لِقُدَّسَةِ الناس وتعبده به؛ أو الشعور أو الإحساس الذي أحسَّه الفرد بل المجتمع المسلم وأضفاه على لغة كتابه المقدس، وسرَّته الأجيال المسلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا شئنا مزيداً من الشواهد أو الأمثلة التي نعزز بها موقفنا فهي كثيرة، وإنَّ منها الكعبة التي يطوف

المسلمون حولها تقديسًا وتعبدًا؛ فهي بناءً كأي بناءٍ ولكنه بناءً اكتسب صفة القدسية من ارتباطه بالعقيدة، وإنه أخذُ أُبنية الله في الأرض " وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا" ^(٢٥)، إنها القدسية التي جعلنا نتبارك بهذا البناء ونطوف حوله، وتمنع أيًا كان من المسلمين من الإقدام بل الاجترار على التفكير في هدمه، وكذلك جبل عرفات فهو كأي جبلٍ من حيث كونه صخورًا وحجارة ولكن له أيام خاصة يُقدّس فيها؛ فهذا الجبل وَمِنَى والمزدلفة وأماكن العبادة الأخرى في الديانات المتنوعة تشكّل مظاهر عادية كغيرها من مظاهر الحياة الأخرى: لا تفترق عنها في شيءٍ من موادّها الخام، وليست مقدسة في ذاتها ولكنها اكتسبت صفة التقديس من اقترانها بالمناسك أو الطقوس الدينية؛ الأمر الذي لمسناه عند عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين قَبِلَ الحجر الأسود بل الأسعد، حيث قال قبل تقبيله له: "والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع لولا أنني

رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقبلك ما قبلك؛" قاصدًا بذلك توجيه المسلمين إلى ضرورة اتباع أفعال رسول الله ﷺ ولو لم يعلموا الحكمة فيها.

وإليس هيكَل حجري كأي أثرٍ حجريٍّ، وكان يمكن أن يكون مزارًا أثرياً مثل قبور الفراعنة أو معابدهم التي تزار دون أي شعور بالكراهية، بل إعجابًا وزهوًا وتخليدًا لإبداع أناس مضوا، ولكن العقيدة الإسلامية جعلت رجمه من تمام مشاعر فريضة الحج؛ رمزًا لهجر الشر في قلوب المسلمين المؤمنين، ولو لم تأمر العقيدة بهذا الفعل لما رأينا عاقلًا يسمح لنفسه رجم حجرٍ بحجر، بل رجم ما لا يحس بما لا يحس!، ولكنه الشعور الإيمانى الذي لا يملك إلا الاستجابة لمن يحب:

إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ ^(٢٦)

إنَّ العقيدة - عزيزي القارئ - تدفع المرء إلى فعل أشياء قد لا يقبلها العقل البشري، والمرء المؤمن نراه يستسلم لكل ما هو عقدي، وليس له أن يجادل بقصد الاعتراض في أمر عقدي؛

لأنه ملزم بالإيمان بكل ما هو عقدي
دون جدال، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ
عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ
فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ
تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي
الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا
وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾
رَبَّنَا إِنَّكَ جَمِيعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ
إِلَهُ لَا يُخَلِّفُ الْوَعْدَ ﴿٢٧﴾ وكذلك ملزم
بالتنفيذ؛ الأمر الذي تجلّى في مسح
الخفين؛ فقد جاء من حديث علي بن
أبي طالب - كرم الله وجهه - قال: (لو
كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف
أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت
النبي ﷺ يمسح ظاهر خفيه)؛ لذا فإننا
نرى فقهاء الدين ينبهون على أن المسح
من الأسفل مخالف للسنة.

والبقرة عند قوم من البشر تُشكّل
معبودًا مقدسًا لهم، والآخر

لا يعيرونها أي نوع من القداسة،
والخنزير لحم يشتهيّه قوم، وهو نتن
محرم عند المسلمين، وكلمة تقال
لعاشق من معشوقته قد يسمعا كثير
ممن حوله دون أي أثر فيهم، ولكنها
تقع فيه موقع السحر الذي لا يستجيب
له إلا هو، والأمثلة على اختلاف
الأحاسيس وطرائق الإيمان أو العقيدة
كثيرة!

وتأمل - عزيزي القارئ -

اعتزاز الناس في مختلف أصقاع
المعمورة كلّها بقطعة قماش يصنّفون
أمامها ليلقوا لها التحية، ويموت
المقاتلون ويُسشّهد المجاهدون في سبيل
الله لأجل أن تبقى راية أمتهم مرفوعة؛
إنه العلم الذي لا يتعدى كونه قطعة
قماشية لا تحمل قيمة في ذاتها، ولكنها
تحمل القيمة الرمزية الدالة على أمتها.

ثانيًا - مسألة كمية عربية القرآن:

وكما سبقت الإشارة فقد أشار
فضيلة المفتي في بحثه الذي أشرنا
إليه، و"قدمه في الجلسة الأولى

للمؤتمر إلى " قضية عدم احتواء القرآن الكريم لكل جذور العربية وتراكيبها ومعانيها، ول مناقشة هذه الفتوى فإننا نقول:

ليست المسألة في هذه القضية أن القرآن جمع كل جذور اللغة أو بعضاً منها، أو أنه جمع مفرداتها المشتقة منها، فالأمر - فيما نرى - ليس كمياً؛ لأن اللغة تتأثر بمجتمعها في مختلف أزمنتها وبيئاتها، وتعبّر عنه في مختلف مضامينها وأحوالها؛ فتروج فيها ألفاظ ومصطلحات وتراكيب برواج مضامينها، وتندثر أخرى أو يقل استعمالها تبعاً لاندثار المضامين أو قلة استعمالها، فليست اللغة بنت مضمون أو حالة أو عصر، وإنما هي نتاج مجموع ألسنة مجتمعها وفق ناموس لغوي تسير عليه.

وإذا كان فضيلة المفتي قد حدد نسبة الجذور العربية التي احتواها القرآن الكريم فإنه لم يشر إلى قضية الألفاظ غير العربية فيه؛ وهنا نتساءل: هل تأتي عدم إشارته إليها في مقام

الاعتراف بها جزءاً من متن اللغة العربية الفصحى، وأياً يكن الموقف منها - عربية أم معربة أم دخيلة - فإن قدسيتها تنبع من قدسية الكتاب الذي ذكرت فيه، وليس لأحد أن يبدّلها فيه ولو هدته فطرته اللغوية إلى بدائل عربية لها؛ الأمر الذي يحرص العربي على فعله في غير هذا المقام.

وكذلك رأينا فضيلته وهو يحدد كمية جذور العربية القرآنية - إذا جازت التسمية - لم يفعل الفعل نفسه في تحديد كمية تراكيبها أو معانيها؛ لذا فإن الأسئلة التي تطرح نفسها هنا هي: هل جاء القرآن موافقاً لأنظمة العربية الفصحى وخصائصها الأسلوبية في التعبير، وما كمية المخالف منها لما جاء في القرآن الكريم، أو ما مدى تأثير هذا المخالف في خصائص السلامة بل الفصاحة العالية؟.

أقول:

لا نستطيع - في هذا المقام - الإجابة عن كل هذه الأسئلة، وإن جهدنا الفردي سيكون - بلا شك -

قاصراً عن الوفاء بمتطلبات الإجابة عن أكثر هذه الأسئلة، ولكننا نقول: لا نظنُّ أنَّ عالِماً أو مُفكِّراً - أياً كان مذهبهُ، أو موقفهُ المعادي للعرب ولغتهم - سيجرؤ على القول: بأنَّ القرآن الكريم خالف العرب في طرائق كلامها، بل سيذعنُ بالاعتراف بمحاكاته لها، وإسهامه في تعزيز توحيدها في لغة عربية فصحيَّة اطَّردتْ أنظمتها؛ ومدَّها بالفاظٍ وتراكيبٍ ومعاني جديدةٍ؛ ونشرها بين الأمم لتغدو بفعل انتشاره بين الأمم لغةً عالميَّة بعد أن كانت لغةً متوقِّعةً تقوِّع أهلها في الصحراء؛ الأمر الذي لا يرضي المغتصبين؛ فزاهم ينقضون عليها بين الفينة والأخرى.

أقول:

وإذا كان الله ﷻ ليس كمثله شيء فقد أرسل رسله وأنبياءه كلاً بلسان قومهِ، وجاء بمحمدٍ من العرب، وجعل معجزته القرآن الكريم الذي عبَّر عن معانيهِ وفق أنظمتِ العرب في كلامهم الفصيح؛ فقد جاء القرآن موافقاً

لنظام العربية الصوتي مخرجاً وصفةً وتجويداً، وكان له الأثرُ البالغُ في الحفاظ على ثبات أخصِّ خصائص العربية وقوانينها التي صاغها علماء العربية في إطار علم التجويد، وتنتقل من قارئ إلى قارئ وفق نظام السند الذي يُصِرُّ علماؤه أنهم يقرؤون من خلاله القرآن الكريم كما كان يقرؤه رسول الله محمد ﷺ، وكذلك كان الحال في الصيغ التي استلهمها علماء الصرف من دراستهم لمتن اللغة العربية؛ لتكونَ قوالبٌ تُشكِّلُ ميزان مفردات العربية الكاشف عن أصالة نسبها إليها، وأوعية رصينة تتفاعل فيها الحركات والصوامتُ تفاعل الروح والجسد لصياغة مفردات جديدة فيها.

وأنا - في هذا المقام - قد لا

أستطيع أن أزعم أن القرآن الكريم قد جاء بكل صيغ العربية الجاهلية؛ فهذا أمرٌ يحتاج إلى دراسة مقارنة إحصائية، ولكني أجزم أنه لم يخالفها، أو أنه جاء بأكثرها، وعزَّز من مكانة ما جاء به منها على السنة العرب

وغيرهم، وأن ما جاء فيه من ألفاظٍ قليلٍ بعُجْمَتِها فإنما هي ألفاظٌ لاكتها السنة عرب الجاهلية فصارت بحكم استعمالهم لها وتعديلهم فيها في حكم مفرداتهم العربية التي حاكتها ساليقتهم اللغوية، وهي مقدسة - كما قلنا - كغيرها من كلمات القرآن الكريم.

وفي مجال قوانين التركيب فقد جاء القرآن الكريم موافقاً لنظام العربية التركيبي والأسلوبي، وهو الأمر الأكثر أهمية في الحفاظ على اللغة؛ لأن فهم النص وتحليله للوصول إلى مضامينه ومراميهِ لا يكون إلا بالتعمق في فهم أسرار نظامه التركيبي والأسلوبي؛ لذا فإن استمرار هذا النظام يُشكّل استمراراً لجوهر اللغة؛ وإن اضطرابه أو تهلُّه نسجه لأشدَّ خطراً من دخول المفردات الدخيلة في متن اللغة.

وقد نبّه علماء اللغة إلى هذه الحقيقة اللغوية؛ يقول الدكتور حسن ظاظا: "ليس الدخيل هو الخطر المحقق باللغة، وإنما يكمن هذا الخطر في زعزعة النظام النحوي والصرفي لهذه

اللغة أو تشويهه، وإحلال غيره محله؛ لأن ذلك هو النمط المرتبط بالفكر والدوق ارتباطاً مباشراً، وهو الذي يكون كالسّمط الذي تنتظم فيه مراحل تاريخ الأدب والحضارة للأمة، أما الألفاظ فإن دورها في حياة اللغة وموتها أقل أهمية من النحو بكثير، ومن الصرف وعلم التراكيب أيضاً" (٢٨).

وأيضاً أشار علماء العربية القدامى إلى أهمية النظام النحوي في الحفاظ على اللغة وكشف معانيها وبلاغتها، إذ وجدنا الجرجاني (ت. ٤٧١هـ) في غير موضع من كتابه "دلائل الإعجاز" يشير إلى أن الإعجاز والبلاغة والفصاحة بنظم الكلام لا بالكلم المفردة، ومن ذلك قوله: "ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل ولا هي منا بسبيل، وإنما نَعَمُّدُ إلى الأحكام التي تَحْدُثُ بالتأليف والتركيب" (٢٩)، و"ليس النظم شيئاً إلا تَوَخَّى معاني النحو وأحكامه ووجوهه

وفروقه فيما بين معاني الكلم^(٣٠)، وأنا
إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم
للكلم المفردة سلكا ينظمها وجامعا يجمع
شملها ويؤلفها ويجعل بعضها بسبب
من بعض غير توخي معاني النحو
وأحكامه فيها طلبنا ما كل محال
دونه^(٣١)، ويضيف موضحا: "واعلم
أني لست أقول إن الفكر لا يتعلق
بمعاني الكلم المفردة أصلا، ولكني
أقول: إنه لا يتعلق بها مجردة من
معاني النحو ومنطوقا بها على وجه لا
يتأتى معه تقدير معاني النحو
وتوحيها"^(٣٢).

وعلى هذا فإن الخطر الأكبر
الذي يمكن أن يتهدد أية لغة يكمن في
خلخلة نظامها التركيبي، وقد أثبت
التاريخ اللغوي أن الأمم الراقية ترفض
الخروج على نظامها اللغوي بصفة
عامة، والنحوي بصفة خاصة، وتبقى
في حركة مستمرة وبحث حثيث عن
كلمة أو مصطلح من لغتها تحل محل
الأجنبي الذي جاءها مع صناعة أو
إبداع من الخارج؛ فإذا ما اضطرت

إلى استعمال اللفظ الدخيل عدلت فيه
لتكسبه خصائص صياغة مفرداتها أو
شيئا منها، واصطلح كثير من علماء
اللغة المحدثين على هذه الظاهرة
بمصطلح "الاقتراض" أو "الاستعارة"،
وجعلوا دخول الألفاظ الأجنبية في غير
لغتها نمطا من أنماط زيادة الثروة
اللفظية؛ حيث تمدها بجذور ومفردات
جديدة يمكن الاستفادة منها في التعبير
عن معاني جديدة لم يكن لهم بها صلة
من قبل.

وفي هذا المجال وجدنا العلماء
العرب القدماء تصم المفردات الأجنبية
بصفة "الدخيلة"؛ تحريضا على نبذها،
ودعوة إلى إحلال البديل العربي محلها،
وكانت حين تعجز عن إيجاد هذا البديل
تتصرف في صياغة الدخيل ليخضع
إلى أحكام الصياغة العربية أو يقترب
منها، وهو ما عُرف بمصطلح
"التعريب" عند كثير من علماء
العربية، وكذلك وجدناهم لتجنب الناس
الوقوع في الغلط، واللجوء إلى
الاقتباس من لغات الآخرين يتحدثون

العربية على الصمود في وجه أي غزو لغوي.

وعلى هذا فنحن نرى أن دخول الألفاظ الدخيلة في اللغات، ولاسيما العتيقة الحية التي تستند إلى تاريخ طويل - كلغتنا العربية - لا يشكل تهديداً لها بالانقراض، بل قد يكون مفيداً لها في التنمية اللغوية؛ وخاصة إذا ما أحسن أهلها تطويعه إلى خصائصها في الوضع الجديد، أما الخطر الحقيقي الذي سيكون له أثر الفعل السحري في تهديدها بالذوبان والانقراض فيتمثل في تقويض نظامها اللغوي ولاسيما الصرفي والتركيب؛ وهو الذي لا نتوقع وقوعه في العربية البتة.

ثالثاً - "العربية عرضة للتغيير، وطبعاً للانقراض كذلك":

هذا ما جاء نصاً في بحث فضيلة المفتي، وكما سبقت الإشارة فهذه هي النتيجة التي أريد الخلوص إليها، وهي قابلية العربية للتغيير والانقراض، وهي التي نريد مناقشتها في هذا المقام.

عن لحن العامة والخاصة، ويستنبطون القواعد التي تكشف العربي من الدخيل، وترشد إلى كيفية إلحاقه بكلام العرب، ويؤلفون المصنفات المفصلة والمختصرة في تقويم اللسان واليد، وكيفية إرشاد الناس إلى مواطن الفصاحة والبلاغة... إلخ.

إن انتقال الألفاظ من لغتها إلى لغات أخرى قضية لغوية مهمة نراها تشير إلى حديث علماء اللغة عن احتكاك اللغات بعضها ببعض واعترافهم بتأثيره في تبادل الألفاظ وفق الحاجتين المعرفية والحضارية؛ الأمر الذي نراه يرتبط اليوم بقضية استعارة العربية المعاصرة لمصطلحات وألفاظ أجنبية هي بحاجة إلى مضامينها، وبيئاً أن هذه الاستعارة قديمة فيها على النحو الذي يعرفه تاريخها الطويل في الاحتكاك بغيرها، واستطاعت أن تتغلب عليه، وتخرج منه بثروة لفظية تخضعها لأحكامها في الصياغة والتركيب؛ مما يسهم في تنميتها، ويصب في خانات القائلين بقدرة

من نطوقها اللهجية، ومنه كذلك إصرارُ
أكثرِ الرجالِ عندنا في فلسطينَ على
الجيمِ القاهريةِ بدلاً من القافِ الفصيحةِ
تعبيراً عن الرجولة.

أما التَّغْيِيرُ اللُّغَوِيُّ

"Intentional language change

فَرَأَهُ يَحْمِلُ فِي مَضْمُونِهِ مَعْنَى غَيْرَ
إِرَادِيٍّ، أَوْ يَتِمُّ إِجْبَارِيًّا؛ أَيْ أَنَّ مَا يَحْدُثُ
فِيهِ لَيْسَ ذَاتِيًّا بَلْ عَنَوَةً لَا يَنْبَغُ - فِي
الْأغْلَبِ - مِنْ خِصَائِصِ الْمَتَغَيَّرِ أَوْ يَتَّفِقُ
مَعَهَا، وَمِنْ ذَلِكَ إِحْلَالُ لُغَةٍ مَحَلَّ لُغَةٍ،
وَهُوَ أَمْرٌ مَقْصُودٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَخْطِيطٍ،
وَيَتِمُّ وَفْقَ مَنَهْجِيَّةٍ مَدْرُوسَةٍ، وَيَمَسُّ
الْخِصَائِصَ بِصِفَةِ عَامَةٍ، وَيَتَّبَعُهُ
تَغْيِيرَاتٌ وَتَغْيِيرَاتٌ كَثِيرَةٌ فِي نَوَاحِي
حَيَاتٍ مَنْ يَعْصُهُمْ هَذَا التَّغْيِيرُ بِأَنْيَابِهِ؛
لِذَا فَإِنَّ الشُّعُوبَ تُجَابُهُ هَذَا الصَّنِيعُ
وَتَبْقَى مُصِرَّةً عَلَى رَفْضِهِ.

أما عن مسألة انقراضِ اللغةِ
العربيةِ فنحنُ مع القائلينَ برفضِ هذا
الزعمِ، ونرى - في ضوءِ رأينا في
مسألةِ قُداسةِ اللغةِ العربيةِ - أنَّ ارتباطَ
هذهِ اللغةِ بالقرآنِ سيجعلها في حِصْنٍ

ونحنُ بدايةً نودُّ الوقوفَ عندَ
كلمةِ "التَّغْيِيرِ" التي جاءت في النصِّ؛
لنقولَ: إِنَّ هُنَاكَ فَرْقًا دَلَالِيًّا بَيْنَ
مُصْطَلَحِي "التَّغْيِيرِ" و"التَّغْيِيرِ"؛ فَـ
"التَّغْيِيرُ اللُّغَوِيُّ" قَاعِدَةٌ أَوْ قَانُونٌ لُّغَوِيٌّ

"Language change "مُعْتَرَفٌ

بِهِ عِنْدَ عُلَمَاءِ اللُّغَاتِ الْمَحْدَثِينَ، وَهُوَ
يُصِيبُ اللُّغَاتِ جَمِيعَهَا بِلَا اسْتِثْنَاءٍ؛
وَيَقُولُونَ بِأَنَّهُ ظَاهِرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ فِيهَا، وَذَلِكَ
كَالتَّغْيِيرِ الَّذِي يَحْدُثُ بِطَرِيقَةٍ تَلْقَائِيَّةٍ فِي
لُغَةِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ " Daily

" language؛ فَاتَّجَاهُ النَّاسِ إِلَى تَقْلِيدِ
بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِطَرِيقَةٍ عَفْوِيَّةٍ يَدْخُلُ فِي
هَذَا الْإِطَارِ، وَيَكُونُ - فِي الْأَغْلَبِ
الْأَعْمَ - اخْتِيَارِيًّا، وَمِنْ ذَلِكَ مَثَلًا اتِّجَاهُ
النِّسْوَةِ وَلَاسِيَمَا الشَّابَّاتِ إِلَى تَرْفِيقِ
أَصْوَاتِهِنَّ وَتَنْعِيمِ كَلَامِهِنَّ؛ فَأَكْثَرُهُنَّ
مَثَلًا يَقُومُ بِإِبْدَالِ نَطْقِ الْأَصْوَاتِ؛ بَغِيَّةً
إِظْهَارِ التَّمَدُّنِ أَوْ الْارْتِقَاءِ أَوْ النُّعُومَةِ؛
وَمِنْ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ أَنَّ أَكْثَرَ الرَّائِغَاتِ
فِي التَّغْيِيرِ عَنِ تَمَدُّنِهِنَّ وَرَفِيقِهِنَّ يَقْمَنُ
بِنَطْقِ الْقَافِ هَمْزَةً بَدَلًا مِنْ نَطْقِهَا قَافًا
فَصِيحَةً أَوْ جِيمًا قَاهِرِيَّةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ

مَكِينٍ يَمْنَعُهَا مِنْ هَذَا الانْقِرَاضِ الْمَزْعُومِ بَلْ سَيُبْطِلُ أَيُّ أَثَرٍ لِهَذِهِ الْفَرِيَةِ الزَّائِفَةِ، سِوَاءٍ عَلَى أَلْسِنَةِ أَهْلِهَا، أَمْ عَلَى أَلْسِنَةِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ، وَتَبِعُوا سُنَّةَ نَبِيِّهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، آمَنَ هَؤُلَاءِ النَّاسُ بِالْإِسْلَامِ وَرَأَوْا فِي لُغَةِ كِتَابِهِ لِسَانًا تَعْبُديًّا لَهُمْ، تَوَجَّبَ عَلَيْهِمْ - كَمَا جَاءَ عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣٢) - تَعَلُّمُهَا؛ لِذَا فَلَيْسَ غَرِيبًا أَنْ يَسْتَمِرَّ الْمُسْلِمُونَ - عَرَبًا أَمْ أَعَاجِمَ مِمَّنْ تَمَرَّسُوا بِأَسَالِيبِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - فِي دِرَاسَةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ وَالتَّأْلِيفِ بِهَا بِوَصْفِهِمْ أَبْنَاءَ أُمَّةٍ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ أَيًّا كَانَ لَوْنُهُمْ أَوْ جَنْسُهُمْ أَوْ بَيْتُهُمْ؛ وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ سَيُكُونُونَ الدَّرْعَ الْوَاقِيَّ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَصِيحَةِ، وَالْحَائِثِينَ النَّاسَ عَلَى الْحِفَاطِ عَلَيْهَا.

القضية الأخرى - حِفْظُ الْقُرْآنِ وَحِفْظُ لُغَتِهِ الْعَرَبِيَّةِ:

نسبت مقالة القاسمي إلى اللغوي السَّعُودِيَّ أ.د. أحمد محمد الضبيبي الرأي القائل بأنَّ حِفْظَ اللَّهِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَا يَعْنِي حِفْظَهُ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ مُسْتَدًّا فِي

ذَلِكَ إِلَى فَهْمِهِ لِلآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (٣٤)؛ إِذْ ذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ - ﷻ - لَمْ يَتَعَهَّدْ فِيهَا "بِحِفْظِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ ضَمَانِ بَقَائِهَا، وَإِنَّمَا ضَمَّنَ حِفْظَ الذِّكْرِ" (وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ)؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ يُمْكِنُ أَنْ تَنْقَرِضَ وَيَبْقَى الذِّكْرُ الْحَكِيمُ بِشَرِيعَتِهِ. وَضَرْبَ مَثَلًا لِذَلِكَ بَانْقِرَاضِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي إِيرَانَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ لُغَةَ الْبِلَادِ الرَّسْمِيَّةِ وَالثَّقَافَةِ فِيهَا، وَبَقِيَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، وَالْمَثَلُ يَنْطَبِقُ عَلَى إِسْبَانِيَا كَذَلِكَ، فَقَدْ انْقَرَضَتْ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ هُنَاكَ، وَبَقِيَ ثَمَّةَ مُسْلِمُونَ يَهْتَدُونَ بِالْقُرْآنِ".

أقول:

وَإِذَا كَانَتْ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ لَا تَتَّصُ صَرَاحَةً عَلَى حِفْظِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ حِفْظَ النَّصِّ لَا يَعْنِي حِفْظَ لُغَتِهِ؛ فَالنَّصُّ مَقْرُونٌ بِلُغَتِهِ لَا انْفِصَامٌ لِأَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، وَإِذَا كَانَ صَحِيحًا أَنْ بَقَاءَ لُغَةِ الْقُرْآنِ لَا يَعْنِي بَقَاءَ عُمُومِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَهَذَا لَا يَعْنِي التَّسْلِيمَ بِمَقُولَةِ انْقِرَاضِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي

بيئات العرب لصالح لغة أو لغات أخرى تحل محلها؛ وذلك لعوامل كثيرة تعضد العامل الديني، ومنها عوامل الهوية القومية والثقافية والتراثية، وأهمها عامل الفطرة اللغوية الذي له متطلباته التراثية والاجتماعية والنفسية؛ فاللغة تؤخذ بالسماع اكتساباً من موروث مجتمعي متراكم؛ لذا فإنه لا يمكن تغيير هذا الموروث اللغوي أو التنازل عنه لصالح غريب وافد.

إن عملية إحلال لغة أخرى في مجتمع يستشعر عداوة لأهلها لا يمكن أن تنجح، ففرق بين تعلم لغة أجنبية؛ لغرض ما في ظل المحافظة على اللغة الوطنية، وتعلمها للتنازل عن هذه اللغة الوطنية إلى غير رجعة؛ فالتعلم في ظل المحافظة مرغوب فيه، أما التنازل فهو المرفوض والمحارب دوماً، وهو ما نلمسه عند كثير من أبناء الجاليات العربية في المهجر؛ حيث يحرص كثير على الحفاظ على لغته الأم: يتكلمها في بيته ومع أقرانه من العرب، وينتظر يوم العودة إلى أرض الشمس والنور،

وهو الحال نفسه الذي تحياه الأقليات في أي مكان تعيش فيه؛ إذ تبقى دوماً تتحين الفرص لإظهار تميزها اللغوي والقومي بصفة عامة.

وإذا كان هناك من ينفي أن حفظ الله ﷻ للقرآن لا يعني حفظ لغته، أو حرفه الكتابي؛ مستدلاً بتركيا أو إيران أو الأندلس، فإننا نرى أن استدلالهم غير مقبول عندنا؛ فالبيئات المذكورة - كما هو معروف - ليست بالبيئات العربية الأصيلة، وأصول جموع أهلها ليست بالعربية أيضاً؛ الأمر الذي استشعره شاعر العروبة الأول المتنبّي في بيئة فارس عندما زار شعب بوان، إذ لفت إلى غربة العربي فيها يداً ووجهاً ولساناً، فقال:

(بحر الوافر)

مَغَانِي الشَّعْبِ طَيْبًا فِي الْمَغَانِي

بِمَنْزِلَةِ الرَّبِّيعِ مِنَ الزَّمَانِ

وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا

غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا

سُلَيْمَانٌ لَسَارَ بَتَرْجُمَانِ

وهنا نقف لننبّه إلى أمورٍ قد تعيننا في توضيح الأمور فنقول: إنّ العرب لم تفرّض لغتها العربية على غيرها من الشعوب، وإنما أقبل أفراد ومجاميع من هذه الشعوب على تعلّمها والتأليف فيها؛ رغبةً في التعمّق في الدين، وتقرّباً إلى الحاكم، ومع هذا فقد كان من هؤلاء- وفي عهد ازدهار الخلافة العربية الإسلامية- من سعى إلى الحفاظ على هوية شعبه لغةً وثقافةً وأمازاً.

وإنّ هناك فرقاً بين البيئات الأصلية للغة، والأخرى التي طرأت عليها اللغة لأيّ سبب كان، فاندثار اللغة في بيئاتها الأصلية يكون- في الأغلب الأعمّ- مستحيلاً؛ وإنّ اندثارها بل انزواءها لا يمنع أهلها من العمل على إحيائها وإعادة بعثها من مراقدها المعجمية وغيرها؛ فنجدهم دائمي التعبير عن الأمل في رجوعها حيّة على ألسنتهم؛ أما اللغات الطارئة فتزول بزوال العامل أو المؤثر الذي أوجدها، وهو ما يمكن أن ينطبق على

حالة اللغة العربية في إسبانيا وتركيا وإيران؛ فهي ليست اللغة الأمّ عندهم، ونظر إليها بعضهم على أنها لغة المحتل؛ لذا فإن تركها عندهم ليعدّ واجباً قومياً يُعبّر عن تمايز هويتهم اللسانية، أما العربية بالنسبة لهم فتبقى لغة غريبة عنهم، وهي عند كثير منهم لا تعدو كونها لغة التبعد، ومع هذا فما يزال منهم من يُجيد التعامل باللغة العربية دون تخلّ عن لغته الأولى ولا سيما في دولة إيران ودولة تركيا التي نرى فيها اليوم صراعاً مختلفاً أشكّله بين العلمانيين والإسلاميين.

نخلص مما سبق إلى أنّ دوافع انقراض اللغة على غير السنة أهلها تختلف عنها على السنة أهلها الأصليين، وأنّ انقراضها في غير بيئاتها الأصلية يُمكن وقوعه لدوافع الهوية القومية، أما في بيئاتها الأصلية فهو الأصعب؛ إن لم يكن مستحيلاً، وهو ما نؤمن به في حالة العربية الفصيحة التي يتوافر لها كثير من عوامل البقاء والنماء في بيئاتها

الأصيلة، وهو ما سنشير إليه في سطور أخرى من هذه الدراسة.

وفي هذا المقام أيضاً تودُّ الدراسة أن توضح شيئاً مهماً تراه يُعين على رُسوخ فكرة بقاء العربية، وهو أن من أهم حجج القائلين بانقراض العربية الفصيحة ضَعْفُ أهلها المعاصرين في التعبير بها عن منجزات الآخرين في مجالات العلوم والحضارة؛ فهم يلجؤون إلى غيرها ولا سيما الإنجليزية والفرنسية للتعبير عن هذه المنجزات في المحافل العلمية العامة كالمعاهد والجامعات والمؤتمرات والندوات وورش العمل وغيرها؛ وهذا يعني أن المشكلة الرئيسة تتركز في مدى تمكن أهلها من إبراز قدراتها في التواصل مع الآخر في مجالات علمية وحضارية معينة، أو إن شئت فقل: في إجاد لغة عربية معاصرة فصيحة يستعملها الآخر في هذه المجالات.

وهنا نودُّ أن نفرق بين أمرين:

أمر التعامل بالعربية مع غير أهلها، وهو يتطلب جهوداً متقدمة لا نظن أن

الحالة العربية اليوم قادرة على الوفاء بها، وأمر التعامل بها بين أهلها في عقر دارها؛ أما هذا الأمر، وكما هو معروف فإن العربية في تاريخها الطويل لم تعجز عن التعبير عن المنجزات العلمية والحضارية في مختلف المجالات، ولَبَّتْ متطلبات الترجمة فيها، وكذلك فإنها انتشرت على السنة غير أهلها - مسلمين وغيرهم - الذين استطاعوا أن يؤلفوا فيها، ويُعبّروا فيها عن علومهم وحضاراتهم ترجمةً وتأليفاً؛ الأمر الذي يكشف عن أن العربية - كغيرها من اللغات العالمية - تَلِينُ على السنة الأجانب متى أقبلوا عليها، بل متى وجدوا فيها ما يقبلون عليه، أو ما يحتاجونه من إنجازات أهلها.

وتشهد اللغة العربية في هذه الأيام إقبال بعض الغربيين على تعلّمها؛ رغم ما يقال في الغرب عن العرب والإسلام من تهمة وافتراءات تُلصق بهم صفات العنف والإرهاب لأغراض سياسية، وقد سمعتُ وشاهدتُ غير

برنامج إذاعي يتحدث عن هذه الظاهرة، وربّ ضارة نافعة فقد لفتت هذه التهم وأحداث المقاومة والجهاد والنضال والكفاح والعمليات الفدائية أو الاستشهادية بحسب المصطلح العربي، أو أحداث العنف والتطرف والإرهاب والعمليات الإرهابية أو الانتحارية بالمصطلح الغربي، وما يقال عن حوار الحضارات والتعايش بين الشعوب أنظار هؤلاء الغربيين؛ فحَثُّهُمْ على التعرف على العرب والإسلام واللغة العربية.

وقد استمعتُ لتقرير إذاعي بثته إذاعة الـ (بي بي سي) في لندن في يوم الاثنين الموافق ٢٤ / ٣ / ٢٠٠٨م تحدّثت فيه عن إقبال البريطانيين على دراسة اللغة العربية في هذه الأيام، وأجرت فيه لقاء مع أحد المستشرقين الذي أكّد ذلك، وأشار إلى أن العربية رغم ما يقال عن صعوبتها، وعدم تطور وسائل تعليمها لغير الناطقين بها فإن هناك إقبالاً على تعلمها في بريطانيا، وأرجع ذلك إلى ما يسمونه

عن العرب والمسلمين، ورغبة هؤلاء المتعلمين في تعرّف العرب وأفكارهم، وأشار إلى أن العربية من أفضل اللغات قابلية للتكنولوجيا الحديثة، فهي لغة منطقية وتسهّل برمجتها، وإنّ الاهتمام بتعليمها لغير الناطقين بها اليوم يعدّ استثماراً مضموناً، وأشار إلى أنّ إنشاء معهد أو مركز أو جامعة في إحدى البلدان العربية يعد مشروعاً استثمارياً ناجحاً.

وهذا قولٌ صحيحٌ، وقد سبقت لنا الإشارة إليه في غير مقامٍ، ولاسيما في بحثنا: "نحو استثمار أفضل للحاسوب في خدمة العربية وعلومها" الذي قدمناه في احتفالية العيد الماسي لمجمع اللغة العربية في القاهرة في عام ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

قدرة العربية الفصيحة

في عصرنا على التعبير عن

العلوم والحضارة

(٤)

ليس من شكّ في أنّ ارتباط اللغة بالفكر يجعل العربية وغيرها

لها في المحافل العلمية العامة؛ الأمر الذي يدفع الآخرين من غير الناطقين إلى اتهامها بالقصور والعجز، والانصراف عنها إلى ما يحقق مصالحهم، وخاصة في ظل عولمة بل هيمنة كونية يسعى أهلها بالقوة إلى التوطيد لأنفسهم في كيانات الآخرين، حيث يحيطون أهلها بظروف قاسية تحذو من إرادتهم، وتجعلهم تبعاً لهم، وفي هذه الحالة فإن الإنسان المغلوب المقهور - عربياً كان أم غيره - حين يجد نفسه محاصراً يضطر إلى تعلم لغة العولمة، والتحدث بها مع الآخر إرضاء للسيد الذي جعل من سيادة لغته سبيلاً مهماً للمقتاتين بما يمتن به عليهم، أو الراغبين في متاع الحياة الدنيا الزائلة.

إن الهجوم على كثير من اللغات في عالمنا المعاصر، أو محاولة إقصائها من الساحات العالمية بات ظاهرة واضحة لا تعاني منه العربية وحدها؛ الأمر الذي دفع بعض أصحابها إلى وضع سياسات لغوية تضمن

قادرة على الوفاء بمتطلبات أهلها في التعبير عما يبتكرونه في حيواتهم، وليس من شك أيضاً في أن هذا الفهم لطبيعة اللغة ووظيفتها في التعبير عن مضامين أهلها سينفض عن العربية كثيراً مما علق بها من ضعف أبنائها في الابتكار المعاصر، وسيطمئن أنصارها على قدرتها على البقاء حية في بيئاتها العربية الأصيلة.

وإذا ما انتقلنا إلى الأمر الآخر - وهو أمر التعامل بها مع الآخرين - فس نجد أن العربية قد نجحت فيه إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، ولكن ضعف العربي المعاصر عن الابتكار في كثير من مجالات الحياة المعاصرة انعكس على لغته العربية سلماً، ومن هنا وجدنا من العرب من ينزلق لسانه إلى استعمال غيرها في التعبير عما ضاق العقل العربي عن التفوق فيه أو إبداعه.

وعليه فإن عدم قدرة هؤلاء على امتلاك لغة عربية واضحة في مجالات معينة يجعلهم عاجزين عن إيجاد مواقع

لغاتهم البقاء والانتشار؛ فأخذنا نسمع عن الفرانكفونية والإسبانوفونية وغيرهما من مصطلحات دالة على النزاعات اللغوية، وجرّص راسمي خطّتها وواضعي مناهجها على تقوية نفوذ لغتهم وتوسيع خريطتها الجغرافية؛ رغبة منهم في استعادة مكانتها في الآخرين، وهذا دليل واضح على أهمية التمايز اللغوي، وتمسك الأمم المتقدمة بلغتها الأم أيّا كانت الرغبة في التعاون والاتحاد مع غيرها؛ ففرنسا وإسبانيا من دول الاتحاد الأوربيّ نراهما بهذه السياسة اللغوية الصائبة تقاوم هيمنة اللغة الإنجليزية لغة المملكة المتحدة (إنجلترا) إحدى دول هذا الاتحاد، وتسعى كلُّ منها إلى توطيد لغتها في المواطن التي انتشرت فيها.

لم تعبأ دول هذا الاتحاد بالمصاريف الباهظة التي تنفقها على ترجمة المذكرات والمحاضر والقرارات وما إلى ذلك في سبيل المحافظة على خصوصية الهوية

اللغوية لكلّ منها، ولم تقم بإلغاء عمّلاتها رغم اتفاقها على سوق مشتركة، وفتح الحدود بينها، وعملية واحدة ارتفعت قيمتها في الأسواق المالية العالمية.

وبالنسبة إلى العربية فإننا لا نُقلُّ من ثمار الجهود الكثيرة التي يبذلها الأفراد والجماعات في المحافل المتنوعة؛ بغية ترميمها والحفاظ على بقائها حيّة على ألسنة أهلها قادرة على التعبير عن المستجدات والاجتهاد في وضع أسماء عربية لها، ونرى أنّ القول بقصور العربية أمرٌ مبالغ فيه، وإنّ الزعم بانقراضها في مجالات ليس دقيقاً لسببين، هما:

الأول - إن استفادة اللغات في تسمية ما لا يبدعها أهلها أمرٌ يُشكّل ظاهرة بشرية عامة.

الآخر - إنّ استعمال العربية للتعبير عن المستجدات يظْهَرُ في مقامات عديدة، وتكشف عنه اجتهادات أبنائها في اقتراح البدائل العربية لأسمائها؛ فهناك أحياناً^(٢٥) من الكوب

الوافد تَمَلُّوْهَا العربيةُ بالمفرداتِ
والمصطلحاتِ والتراكيبِ، وترفدُ بها
السنةَ أهلها، وهذا من خصائصِ
الشعوبِ الحيةِ في تنميةِ لغاتها.

ليست العربيةُ من اللغاتِ المَيِّتَةِ
" Dead language " التي انكفأتْ
على نفسها فاقْتَصَرَ وجودُها مَنْقُوشَةً
في الكتبِ القديمةِ لا يَعْرِفُهَا إلا فقهاءُ
اللغةِ " Philologists "، وبات أدواؤها
على ألسنةِ الرهبانِ في كُنُسِهِمْ
ومعاهدِهِمْ؛ وذا حالٌ ما زالت العربيةُ
عنه بعيدةً جدًّا.

ولعلي لا أبالغ إذا ما قلتُ بأنَّ
العربيةَ الفصيحةَ ما تزالُ همزةَ الوصلِ
بينَ أبناءِ العروبةِ على اختلافِ دولهم،
وإنَّ العامياتِ العربيةَ - في أرضِ
الواقعِ - لا تستطيعُ أنْ تقومَ بالدورِ الذي
تقومُ به الفصيحةُ في البيئاتِ العربيةِ،
وقد يجدُ العربيُّ نفسه غريبًا حينَ يَسْمَعُ
بَعْضَهَا؛ لأنه لا يكادُ يفهمُ إلا النَّزَرَ
اليسيرَ منها بخلافِ الفصيحةِ المَيَّسَّرَةِ
لغةِ التَّواصلِ " Lingua franca "
بينَ أبناءِ الأمةِ العربيةِ صغارًا وكبارًا

على اختلافِ مستوياتهم؛ وأدلةُ سلامةِ
هذا الرأيِ نلمسُها واضحةً في البرامجِ
واللقاءاتِ التي تبثها الإذاعاتُ المرئيةُ
والمسموعةُ؛ والخطبُ السياسيةُ والدينيةُ
والاجتماعيةُ وغيرها؛ والمؤتمراتِ
وورشِ العملِ التي تُعقدُ في البيئاتِ
العربيةِ.

وأيًّا تكن شراسةُ الهجومِ على
العربيةِ في هذه الأيامِ فنحنُ نُصرُّ على
إيماننا بقدرتها على البقاءِ إلى يومِ
الدين؛ فهي من أقدمِ اللغاتِ إنْ لم تكن
أقدمها، وتمتلكُ تاريخًا ممتدًّا موعلاً في
قدامتهِ وتجاربهِ المتعددةِ أهلها لأنَّ
تكونَ من أقوى اللغاتِ، وكما علَّمنَا
التاريخُ فإنَّ الحضاراتِ القويةَ لا
تموت، ولكنها قد تَضَعُفُ، واللهِ دَرُّ
شاعرنا المتنبي حينَ قال: (الخفيف)

وَإِذَا كَانَتْ النُّفُوسُ كِبَارًا

تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ

مسوغات بقاء العربية

(٥)

تودُّ الدراسةُ أنْ تنبَهَ إلى أنَّ
ازدهارَ لغةٍ في مجالٍ أو مجالاتٍ،

وضَعَفَهَا فِي أُخْرَى يَشْكُلُ ظَاهِرَةً لُغَوِيَّةً طَبِيعِيَّةً تَقُولُ بِهَا الدَّارِسَاتُ اللُّغَوِيَّةُ؛ فَهِيَ تَعْبِيرٌ وَاضِحٌ لِأَحْوَالِ أَهْلِهَا، وَأَنَّ مِنْ غَيْرِ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَشْكَلَ انْزَوَاؤُهَا فِي مَوَاقِعَ، وَاسْتَعَانَتْهَا فِيهِ بِمَفْرَدَاتٍ غَيْرِهَا ذَرِيعَةً لِلْقَوْلِ بِانْقِرَاضِهَا أَوْ ذَوْبَانِهَا جَمْلَةً؛ فَهِيَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مُرْتَبِطَةٌ بِأَهْلِهَا، وَأَحْوَالِ الْبَشَرِ^(٣٦) - كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ - غَيْرُ ثَابِتَةٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٣٧).

وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الدِّرَاسَةَ تَرَى أَنَّ إِثَارَةَ مَسْأَلَةِ انْقِرَاضِ الْعَرَبِيَّةِ فِي بَدَايَةِ الْعَقْدِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ الْمِيلَادِيِّ تُشَكِّلُ فِرْيَةً جَدِيدَةً أَوْ أُمْنِيَّةً ضَالَّةً لَهَا أَهْدَافُهَا الشَّرِيرَةُ وَدَلَالَتُهَا الْخَبِيثَةُ، وَكَأَنَّ مُرَوِّجِيهَا يَرِيدُونَ لِأَبْنَاءِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ صِرَاعٍ لِيَجِدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي صِرَاعٍ جَدِيدٍ لِلدِّفَاعِ عَنْ هَوِيَّتِهِمُ اللَّغَوِيَّةِ، وَبِذَلِكَ تَتَعَطَّلُ مَلَكَاتُهُمْ، وَتَبْقَى - فِي الْأَغْلَبِ الْأَعْمَ - تَدَوُّرٌ مَعَ أَرْحِيَّةٍ صَدِّ الْمَوَاطِرِ^(٣٨) دُونَ تَجْدِيدٍ أَوْ إِبْدَاعٍ.

وَكَمَا سَبَقَ الْقَوْلُ فَإِنَّ هُنَاكَ

مُسَوِّغَاتٍ أَوْ مَعَزَّزَاتٍ كَثِيرَةً تَجْعَلُنَا نَقُولُ بِبَقَاءِ الْعَرَبِيَّةِ الْفَصِيحَةِ حَيَّةً أَيْبَا كَانَتْ شِدَّةُ مَا تَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ هَجَمَاتٍ مُتَلَاحِقَةٍ نُوذُّ الْإِشَارَةَ إِلَى أَهْمِهَا:

١ - الْمَسْوُوعُ الدِّينِي:

فِي ضَوْءِ مَا عَرَضْنَاهُ مِنْ سُلْطَانِ الْوَازِعِ الْعَقْدِيِّ فَإِنَّا نَوُثِّنُ أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لَنْ تَنْقَرِضَ مَا دَامَ الْقُرْآنُ بَيْنَنَا، وَمَا دَامَ هُنَاكَ مُسْلِمٌ مُوَحِّدٌ بِاللَّهِ ﷻ، وَفِي أَسْوَأِ الْأَحْوَالِ الَّتِي لَا نَوُثِّنُ بِإِمْكَانٍ وَقُوعِهَا فِي يَوْمٍ مَا إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْفَصِيحَةَ سَتَبْقَى، وَلَوْ انْحَصَرَ أَمْرُ وَجُودِهَا فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ الْمَعْجَزَةِ لَفْظًا وَتَرْكِيبًا، وَهَذَا أَمْرٌ مُسَلَّمٌ بِهِ، وَلَا نَظَنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ مُرَوِّجِي فِكْرَةِ انْقِرَاضِ الْعَرَبِيَّةِ يَقُولُ بَغَيْرِهِ.

وَإِذَا مَا رَبَطْنَا بِلُغَةِ الْقُرْآنِ لُغَةً أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُنَنِهِ^(٣٩)، وَاجْتِهَادَاتِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي شَرْحِهَا وَالِاسْتِنْبَاطِ مِنْهَا، وَأَضْفْنَا إِلَيْهَا كُتُبَ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ بِمُخْتَلَفِ مَضَامِينِهَا الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ

ومشارب أصحابها - أدركنا أن ارتباط العربية بالقرآن الكريم والدين الإسلامي بصفة عامة شكل عاملاً قوياً في استمرار بقائها؛ فالعربية نمت وازدهرت في ظل انتشار الإسلام، ولم يعمل أهلها على القضاء على لغات غيرهم؛ فقد عاشت مع غيرها من لغات المسلمين، واستفادت من فكر أهلها وعلومهم وحضارتهم سواء بالترجمة من اليونانية أو الفارسية أو الهندية، أم بمشاركة علماء من أبناء هذه اللغات بالتأليف في اللغة العربية؛ الأمر الذي جعل غير العرب من المسلمين - آنذاك - لم ينظروا إليها نظرة عداوة؛ بل نظرة احترام وتقدير؛ لذا فهي عند العالم الفاضل الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة "لغة الإسلام في منابعه الأولى، وفي تراثه عبر القرون: هي اللغة الجامعة والمشاركة والموحدة، وهي لغة المعمورة الفاضلة في نظام عالمي يوفر السعادة لأبناء البشر قاطبة على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم في القرن الحادي

والعشرين، إن شاء الله" (١).

وحَدَّ القرآنُ ألسنة العرب على العربية الفصحى، وتعدَّى بها حدودهم بعد أن كانت صلاتهم الخارجية لا تتعدى - في الغالب - رحلة الشتاء والصيف، ومكَّن لها على ألسنة غيرهم من بني البشر الذين تعمقوا فيها، ووضعوا فيها المصنفات الزاخرة بما لهذا الجهد الإنساني العالمي في خدمة العلوم العربية والإسلامية.

أقول: لم تعد العربية بفعل القرآن الكريم وإقبال غير العرب على تعلمها لتدارس القرآن وتحقيق منافع لهم لغة العرب وحدهم، حيث أمست لغة عالمية، وغدت لغة العلوم والفكر والحضارة في البيئات الإسلامية المتنوعة، وبذلك دخلت مرحلة تاريخية جديدة، وفريدة في تاريخ توحيد الأجناس على لغة واحدة.

وَصَدَّقَ رسولُ الله ﷺ حين أشار إلى عالمية اللغة العربية، فقال: "ليست العربية منكم بأب أو أم؛ إنما العربية للسان فَمَنْ تَحَدَّثَ العربية فهو عربي؛

أَنْفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤١﴾

إنَّ ارتباطَ العربيةِ الفصيحةِ بالدينِ
الإسلاميِّ وتزايدِ عددِ المسلمينِ
ورغبتهم في النهوضِ والارتقاءِ شكَّلَ
قلَقًا كبيرًا للطامعينِ في السيطرةِ على
الآخرين، ودافعًا للهجومِ على كلِ مقوماتِ
العودةِ إلى التوحيدِ، والاعتمادِ على الذاتِ،
والارتقاءِ نحوِ الأفضلِ، ولكنَّ قدرةَ الله
هي الأقوى، "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ" (٤٢).

وليس من شكٍّ في أنَّ للقرآنِ
الكريمِ الصالحَ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ
وعلمه أثرًا قويًّا في الحفاظِ على
الفصيحةِ، وإنَّ لنا في الصحوةِ العربيةِ
الإسلاميةِ المعاصرةِ أملاً كبيراً في
إفسادِ أيِّ هجومٍ على العربيةِ الفصيحةِ،
وهي صحوةٌ ندعو الله لها بالنهوضِ
والسيرِ بِخُطَى حَثِيثَةٍ على تعاليمِ الدينِ
الإسلاميِّ السَّمَحِ الحنيفِ بعيداً عن
تجاذباتِ سياسيةٍ أو حزبيةٍ مقبنةٍ تُشوِّه
الفطرةَ الدينيةَ التي جُبِلَ عليها الأسلافُ

فالعربيةُ لغةُ دينِ الله الخاتمِ لجميعِ
البشرِ. في مختلفِ أصقاعِهِمْ، ولا فرقَ
فيه بينِ عربيٍّ وغيرِهِ إلا بالتقوى، وهو
ما دفع إلى القولِ: (الوافر)
أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواه

إذا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمٍ
جمعَ الإسلامُ- بقدرةِ الله ﷻ-
القلوبَ المؤمنةَ لَتَقِفَ صفاً واحداً،
فوجدنا سليمانَ الفارسيَّ وصهيباً
الروميَّ وبلالاً الحبشيَّ ﷺ يَصْطَفُّونَ
مع الرسولِ ﷺ في أوقاتِ الشدةِ منذ بدءِ
دعوته، ورأينا القادةَ العسكريينَ من
غيرِ العربِ يندفعون إلى نصرَةِ الإسلامِ
والمسلمينَ، من أمثال: طارق بن زياد
(بربري) فاتحِ الأندلسِ، وصلاح الدين
الأيوبي (كردي) محررِ القدسِ من
الصليبيين، وسيف الدين قطزِ الحاكمِ
المملوكي بطلِ معركةِ عين جالوتِ الذي
قضى على غرورِ المغولِ وبطشِهِمْ،
وصدَّقَ الله العظيمُ حينَ خاطَبَ رسولهُ
مشيراً إلى قدرته- ﷺ- في توحيدِ
المسلمينَ، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرِهِ
وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢) وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ

الأفاضِلُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ
وغيرِهِمْ مِمَّنْ سَلَكَوا النُّهْجَ الدِّينِيَّ
السَّلَامِيَّ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَمْ يَعْلَمُوا^(١٣).

ونرى أنَّ في اشتدادِ الإساءاتِ
والهجماتِ على الدينِ الإسلاميِّ
ورسوله الكريمِ ولغتهِ العربيةِ أثرًا
كبيرًا في إحداثِ رداتِ فعلٍ عربيةٍ
إسلاميةٍ قويةٍ سيكون لها دورها الكبيرُ
في ترسيخِ قواعدِ الحفاظِ على الدينِ
ولغتهِ، وكلما ازدادتِ شدةُ الهجومِ
وتنوعتِ أشكالُهُ تنامي عددُ المنتصرينِ
لتراثهم الدينيِّ واللغويِّ، وزادَ حرصُهُمْ
على الرِّفْعِ من شأنه، وكم هي الرسائلُ
والنداءاتُ التي تصلُ عبرَ المراسيلِ
الإلكترونيةِ اليومِ داعيةً إلى نصرةِ نبيِّ
الإسلام، ومتحدثةً عن مناقبهِ الحميدةِ؛
الأمر الذي لم يكن بهذه الكثافةِ والتنوعِ
قبل هذا الهجومِ الغربيِّ الشرِّسِ عليه
ﷺ؛ فقد هبَّ الغياريُّ للذودِ عن دينِهِمْ
ولغتهم.

وكان من مظاهرِ هذا الذودِ على
العربيةِ والإسلامِ الإكثارُ من مراكزِ

تحفيظِ القرآنِ وتعليمِ أحكامِ تجويدهِ،
 وإقامةِ المسابقاتِ الدينيةِ في حفظهِ
وشرحهِ ومعرفةِ الثقافةِ العربيةِ
الإسلاميةِ، وإنَّ فوزَ كثيرٍ من غيرِ أبناءِ
العربيةِ فيها لنراه يُعزِّزُ المكانةَ العالميةَ
التي ما تزالُ العربيةُ الفصيحةُ تجدُ
لها مواقعَ واضحةً فيها؛ وهو ما
يغيبُ أعداءها فيزيدون من تطاولهم
عليها.

وكما سبقت الإشارة فقد كان
لهذه الهجماتِ الحاقدةِ أثرها في إحداثِ
تأثيرٍ عكسيٍّ في نفوسِ أناسٍ من أعداءِ
الإسلام؛ إذ أقبلَ نفرٌ من غيرِ المسلمينِ
على تعرُّفِ الدينِ الإسلاميِّ، واتجه
بعضُهُم إلى تعلُّمِ العربيةِ الفصيحةِ
للاطلاعِ على مفاهيمِهِ من مصادرهِ
الأصيلةِ؛ الأمرُ الذي يوضِّحُ المثلُ
العربيُّ: "رُبَّ ضارَّةٍ نافعةٍ"، وقول
الشاعرِ العربيِّ الحكيمِ أبي تمامٍ
حبيب بن أوس (ت. ٣٢١هـ):
(الكامل).

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ
طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانُ حَسَوْدٍ

لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ

مَا كَانَ يُعْرِفُ طَيْبُ عَرَفِ الْعُودِ

لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ

لِلْحَاسِدِ النِّعْمَى عَلَى الْمَحْسُودِ

٢- الْمُسَوِّغُ الْقَوْمِي:

وهو مسوِّغٌ واضحٌ يرتبطُ

بشعورِ العربيِّ في مختلفِ أقطارِ

الوطنِ العربيِّ برابطةِ العروبةِ التي

ينتمي إليها عِرْقًا وتراثًا وأرضًا ولغةً

وتاريخًا وثقافةً وحضارةً وما إلى ذلك،

وقد تَعَنَّى أدباءُ العربِ بهذه المقومات:

قال شاعرُ النيلِ حافظُ إبراهيم:

(١٨٧١ - ١٩٣٢م) البسيط

لِمِصْرَ أَمْ لِرُبُوعِ الشَّامِ تَنْتَسِبُ

هُنَا الْعُلَا وَهُنَاكَ الْمَجْدُ وَالْحَسَبُ

رُكْنَانِ لِلشَّرْقِ لَا زَالَتْ رُبُوعُهُمَا

قَلْبُ الْهَلَالِ عَلَيْهَا خَافِقٌ يَجِبُ

خِدرَانِ لِلضَّادِ لَمْ تَهْتِكْ سُبُورُهُمَا

وَلَا تَحَوَّلَ عَنْ مَغْنَاهُمَا الْأَدَبُ

أُمُّ اللُّغَاتِ غَدَاةُ الْفَخْرِ أُمُّهُمَا

وَإِنْ سَأَلْتِ عَنِ الْأَبَاءِ فَالْعَرَبُ

وكما هو واضحٌ فإنَّ الشاعرَ يشيرُ

إلى عناصرِ التكاملِ بينِ الشامِ ومصرَ،

وكيف أنَّهما ركنانِ حصينانِ للعربيةِ

وأدبها، وأنَّ أهلَ هذهِ الديارِ يرجعونَ

إلى أصلٍ واحدٍ هو الأبُ العربي.

وقال شاعرُ القطرينِ خليلُ مطران:

(١٨٧١ - ١٩٤٩م) الوافر

أَنَا الْعَرَبِيَّةُ الْمَشْهُودُ فَضْلِي

أَأَغْدُو الْيَوْمَ وَالْمَغْمُورُ فَضْلِي

إِذَا مَا الْقَوْمُ بِاللُّغَةِ اسْتَخَفُوا

فَضَاعَتْ، مَا مَصِيرُ الْقَوْمِ قُلْ لِي؟

وَمَا دَعْوَى اتِّحَادٍ فِي بِلَادٍ

وَمَا دَعْوَى ذِمَارٍ مُسْتَقِلٍّ

والشاعرُ هنا يركِّزُ على أهميةِ

اللغةِ العربيةِ في توحيدِ أهلها، ويذكرُ

أنَّ ضياعها سيكونُ له أثرُه السلبيُّ في

مصيرهم.

وقال شاعرُ العروبةِ على

الجارم: (١٨٨١ - ١٩٤٩م) البسيط

بَنَى الْعُرُوبَةَ إِنَّ اللَّهَ يَجْمَعُنَا

فَلَا يُفَرِّقُنَا فِي الْأَرْضِ إِنْسَانُ

لَنَا بِهَا وَطَنٌ حَرٌّ نَلُودُ بِهِ

إِذَا تَنَاعَتْ مَسَافَاتٌ وَأُوطَانُ

غدا الصليبُ هلالاً في توحُّدنا

وَجَمَعَ الْقَوْمَ إِنْجِيلٌ وَقُرْآنُ

ولم نبالِ فروقاً شتتت أمماً

عدنانُ غسانُ أو غسانُ عدنان

أواصرُ الدّم والتاريخ تجمعنَا

وكلنَا في رحابِ الشرقِ إخوانُ

وعلي الجارم- في هذا المقام-

نراهُ يجعلُ العروبةَ مصدرَ توحيدِ أبناءِ

الوطنِ أيّاً تباعدت المسافاتُ والأوطانُ،

ولا فرقَ في هذهِ الرابطةِ القوميةِ بين

نصرانيٍّ ومسلمٍ؛ فكلهم إخوانٌ منذ القدم

تربط بينهم أواصرُ الدّم والتاريخ،

وأرضُ الشرقِ التي يتعمونُ بأنوارِها

وخيراتِها.

وكما هو واضحٌ فإنَّ هذا

المُسوّغُ يجمعُ في مكوناتِه عواملَ

كثيرةً تُعزّزُ من أثره في الحفاظِ على

الرابطةِ اللغويةِ كالعاملِ التراثيِّ الذي

تشكّلُ اللغةُ أداةَ التعبيرِ عنه، واللغةُ-

كما هو معروفٌ- عمادُ القوميةِ؛ وإنَّ

الانسلاخَ عنها يعني الانسلاخَ عن أداةِ

توصيلِ التراثِ: هذا الركنُ السّديدُ في

تاريخِ أيةِ أمةٍ، ولا يُمكنُ بأيِّ حالٍ من

الأحوالِ التخلي عنه؛ لأنّه تخلّ عن

الماضي بكلِّ ما فيه من تعبيرٍ عن

الحياتينِ العربيّةِ والإسلاميّةِ؛ الأمرُ

الذي لا يمكنُ تصوُّرُ قبُولِ العربِ

مسلمين وغيرهم له؛ فقد وجدنا كثيراً

من إخواننا النصاري يدافعون عن

العربيّةِ الفصحى وتراثِها، ويسهمون

في تجنيبِها المشكلاتِ أو العيوبَ التي

وُصِمت بها، وكذلك كان حالُ جماعةٍ

من المستشرقينِ الموضوعيين الذين

تحدثوا عن مميزاتِ العربيّةِ لغةً

وكتابةً.

والعامل الجغرافي وهو كسابقه

يشكّلُ أحدَ مقوماتِ القوميةِ، ويتمثّلُ في

تجمّعِ العربِ في منطقةٍ جغرافيةٍ

طبيعيةٍ متصلةٍ يربطُ بينهم فيها علاقاتٌ

قديمةٌ في النّسبِ والقربى والثقافةِ

العربيّةِ المعتمِدةِ على تاريخٍ

طويلٍ... إلخ؛ الأمر الذي يجعلُ العربيَّ

في رغبةٍ جامحةٍ إلى التواصلِ مع أخيه

العربيِّ، وذلك بعد أن أثبتت التجربةُ

لكثيرٍ من أبنائه في المهجرِ أنَّ غُرْبَتَهُمُ

مهما طالَت فهوى الأوطانِ مغروسٌ

فيهم، وأملُ العودةِ إليهما لن يفارقَ

أخيلَتَهُمُ؛ الأمر الذي يُظهرُهُ تعاطفُهُمُ

العربية فيها دون قيود، وليس غير
الفصيحة أو ما يقرَّب منها تُقرَّبُ بين
ألسنتهم، وتُخَفَّفُ مِنْ حَدَّةِ الفوارق بين
لهجاتهم المتنوعة.

ونثمنُ في هذا المقام اتفاق دول
مجلس التعاون الخليجي على السماح
لأبناء دوله بالتقل في ربوعه دون
قيود، وندعو الله أن يوفق إلى خطوة
إغمامه في جميع دول العالم العربي،
والأمل في تحقيق هذه الغاية معقود
بإذنه ﷻ.

ونذكرُ في هذا المقام بأيام خوال
كان المغربي يأتي ليقيم في مصر إقامة
دائمة، وفي فلسطين: هذه الأرض
المقدسة التي لا تجد بلدة فيها: قرية أو
مدينة أو بادية خالية من عائلة بل
عائلات لها امتدادات عرقية في
الأمصاير العربية مغربية كانت أم
مشرقية، ولعل في هذا التواصل
العربي، إلى جانب التواصل الديني ما
يُفسر ارتباط أبناء الأمة العربية
جميعهم بها، ويرغب في تحريرها من
المغتصبين.

ومساندتهم لقضايا أمتهم العربية في
القنوات الفضائية وغيرها.

ولله درُّ القائل: (الكامل)

لو لم تُعَيَّن في الشريعة كعبة

لَيَمَمْتُ وجهي داخل الأوطان

وأحمد شوقي: (الخفيف)

وطَني لو شَغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ

نازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

وعبد الرحيم محمود: (الرمل)

تلك أوطاني وهذا رسمها

في سويداء فؤادي مُحْتَقَرُ

تترأى لي على بهجتها

حيثما قلَّبتُ في الكونِ النَّظْرُ

هي في ثنيائي سرٌّ مثلاً

قد غدا اسمُ الله سرًّا في السَّوَرِ

يا بلادي يا منى قلبي إن

تسلمي لي أنتِ فالدُّنيا هَذَرُ

لا أرى الجنة إن أدخلتها

وهي خلوة منك إلا كَسَقَرُ

مُنِيَّتِي فِي خُرْبَتِي قَبْلَ الرَّدَى

أن أُمَلِّي مِنْ مَجَالِيكَ النَّظْرُ

ونحن ندعو في هذا المقام إلى فتح

الحدود بين الأقطار العربية ليجول أبناء

٣- المَسْوَعُ النَّفْسِي:

يُشَكِّلُ امْتِلَاكُ مَلَكَةِ الْإِفْصَاحِ عَنِ الْمَضَامِينِ الْفَكْرِيَةِ وَالْاجْتِمَاعِيَةِ وَالْعَاطَفِيَةِ وَغَيْرِهَا بَلْغَةً فَصِيحَةً سَلِيمَةً خَاصَّةً تُعَزِّزُ مَكَانَةَ صَاحِبِهَا فِي مُجْتَمَعِهِ، وَتَفْتَحُ أَمَامَهُ مَجَالَاتٍ رَحْبَةً فِي مِيَادِينِ الْإِتِّصَالِ وَالْعِلَاقَاتِ؛ وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْفَصِيحَةُ تُشَكِّلُ مُسْتَوًى عَالِيًّا مِنْ مُسْتَوِيَاتِ كَلَامِنَا الْعَرَبِيِّ، وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ امْتِلَاكَهُ يُحَقِّقُ لِصَاحِبِهِ عِنْدَ أُمَّةٍ عُرِفَتْ بِأَنَّهَا أُمَّةٌ ذَاتُ بَيَانٍ مَكَانَةً عَالِيَةً، وَرَاحَةً نَفْسِيَّةً تُعَزِّزُ مِنْ ثِقَلِهِ بِقُدْرَاتِهِ اللَّسَانِيَةِ وَالْفَكْرِيَةِ.

إِنَّ حِرْصَ الْعَرَبِيِّ عَلَى امْتِلَاكِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ نَرَاهُ يَتَبَدَّى فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، أَهْمُهَا حِرْصُ كَثِيرٍ مِنَ الْخُطَبَاءِ وَالسِّيَاسِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ عَلَى سَلَامَةِ كَلِمَاتِهِمْ وَخُطَابَاتِهِمْ وَكِتَابَاتِهِمْ مِنَ الْأَغْلَاطِ اللَّغَوِيَةِ؛ فَتَرَاهُمْ يَلْجَأُونَ إِلَى أَسَاتِذَةِ اللُّغَةِ لِيُصَحِّحُوا لَهُمْ أَغْلَاطَهُمْ، وَيُضَبِّطُوا لَهُمْ تَرَكَيبَ جَمْلِهِمْ وَعِلَامَاتِ إِعْرَابِهَا؛ وَيَزِيدُوهُمْ بِمَا يُعَزِّزُ كَلَامَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَشْعَارِ وَالنُّصُوصِ الْأَدْبِيَةِ

مِنْ أَمْثَالٍ وَأَقْوَالٍ مَشْهُورَةٍ؛ وَهُوَ اتِّجَاهٌ يَعْكُسُ رَغْبَةَ الْعَرَبِيِّ الدَّائِمَةَ فِي امْتِلَاكِ لُغَةٍ سَلِيمَةٍ، وَرِضَاءَ نَفْسِيًّا يَدْفَعُ عَنْهُ الْخَوْفَ مِنْ تَتَبُّعِ النَّاسِ لِسَقَطَاتِهِ اللَّغَوِيَةِ.

٤- الْمَسْوَعُ التَّقْنِي:

لَا يُمَكِّنُ إِغْفَالُ دَوْرِ التَّقْدِيمِ الْكَبِيرِ فِي تَقْنِيَّاتِ وَسَائِلِ الْإِتِّصَالِ وَالْإِعْلَامِ، وَمَا تَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ طَاقَاتٍ كَبِيرَةٍ تُمَكِّنُ الْإِنْسَانَ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ مِنَ الْإِطْلَاعِ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي الْعَالَمِ، وَأَنْ يَتَوَاصَلَ بِمُبَاشَرَةٍ مَعَ أَقْرَانِهِ بِدُونِ عَنَاءٍ، وَبِتَكْلِفَةٍ زَهِيدَةٍ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ إِمْكَانَاتِ بَرَامِجِ التَّحَادُثِ أَوْ التَّرَاسُلِ الْبَرَقِيِّ عِبْرَ شَابَكَاتِ الْبَرَقِ.

وَمِمَّا يُذَكِّرُ فِي هَذَا السِّيَاقِ انْتِشَارُ الْمُدَوَّنَاتِ وَالْمَوَاقِعِ الْمُحَوَّسَةِ الَّتِي تُعْنَى بِبَيْتِ الثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتُعَلِّمُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ، وَنَشْرُ الْكُتُبِ التَّرَاثِيَةِ الْحَدِيثَةِ وَالْمَجَلَّاتِ وَالْمُبَاحِثِ الْمُتَخَصِّصَةِ فِي فُرُوعِ هَذِهِ التَّخَصُّصَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَمِمَّا يَصُبُّ فِي خَانَاتِ تَبَادُلِ الْمَعْلُومَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهَا أَيْضًا تَفَنُّنُ كَثِيرٍ مِنْ ذَوِي الثَّقَافَةِ الْحَاسُوبِيَّةِ فِي تَصْمِيمِ

معلومات دينية بأشكال جميلة جاذبة، ونشرهم لها مجاناً، ويقوم المتراسلون المعجبون بها، والراغبون في كسب الأجر بإذاعتها فيما بينهم عبر المرسال البرقي^(٤٤).

وكذلك لا يمكن إغفال دور القنوات الفضائية التي تستعمل الفصيحة في أكثر برامجها؛ فهناك قنوات فضائية يقتصر اهتمامها على المضمون الديني في جميع مصادره المعتمدة، ولا تُذيع برامجها بغير هذه اللغة، ومنها ما يقدم برامج ودروساً في تعليمها للعرب وغيرهم، وقد كان لهذه الوسائل وغيرها الأثر الكبير في التعريف بالدين الإسلامي والترويج للغته في جميع أنحاء المعمورة؛ الأمر الذي يسهم - بلا ريب - في نشر الثقافة العربية الإسلامية، وإقبال بعض غير المسلمين إلى التعرف على تعاليم الدين الإسلامي ولغته، ودخول من يفتح الله قلبه في الإسلام.

وتعول في هذا المقام أيضاً على القنوات العربية التي تختص بالأطفال،

حيث تقدم برامجها بالعربية الفصيحة؛ لأنها رأت في هذا المستوى اللغوي وسيلة رابطة لللسنة أبناء العروبة بعضها ببعض في جميع أصقاعهم، وليس غير هذه الفصيحة - كما نعتقد -

صالحاً لخطاب الطفل العربي بل الإنسان العربي في المشرق والمغرب، ولنا في قناة الجزيرة للأطفال والجزيرة الثقافية القدوة التي نرغب في ذكرها في هذا المقام؛ تنويعاً بفضلها، وتشجيعاً لغيرها لانتهاج نهجها في إيلاف أذان أطفالنا وشبابنا العرب سماع لغة سليمة يمكن لألسنتهم محاكاتها دون خوف.

ومما قد يدخل في سياق خدمة اللغة العربية أفلام الكرتون ومسرح العرائس بل الدمي، والتمثيلات المعربة أو ما تسمى بالمُدبَّجَة؛ فهي تمثيلات غير عربية المضمون والأداء، يتم ترجمتها وإنطاق ممثلها اللغة العربية الفصيحة، وهي فقرات ترفيهية تلقى - فيما أعرف - إقبالا كبيرا من الجمهور العربي، وكذلك عناية الإعلام بمسابقات حفظ القرآن وتفسيره، والمسابقات

النَّاسَ فَيَمَكُّ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ ﴿٤٦﴾.

ويبدو أن المستوى الرسمي العربي قد أخذ يتتبع للآثار الضارة للقنوات الفضائية التي تعمل في الإطار المعادي أو المشوه للثقافة العربية وأهلها؛ إذ وجدنا وزراء الإعلام العرب يبحثون في القاهرة في شهر فبراير من هذا العام (٢٠٠٨م) إطاراً ضابطاً يُنظّم أعمال القنوات الفضائية العاملة في الدول العربية، وينصُّ الإطار الذي أعدته جامعة الدول العربية بعنوان: مشروع مبادئ تنظيم البث الفضائي في المنطقة العربية علي احترام حرية التعبير، ويطلب ممارستها بمسؤولية واعية لحماية المصالح العليا للدول العربية، ورأينا من القنوات الفضائية من تناقش هذا الاتجاه وأهدافه على خلاف بينها في التوجه، وأياً يكن مضمون هذه المناقشات فإننا نراها تبشرُ بصحوة عربية تعزّزُ خصائص الشخصية العربية قيمياً وثقافةً ولغةً وتراثاً وما إلى ذلك، وتوجدُ لها المكانة

الأدبية، وما مسابقة شاعر المليون التي أذاعتها قناة أبي ظبي الفضائية إلا مثالٌ ينبغي تكرارُ احتذائه، وتذكُّرُ بأسواق العربية الأدبية التي كان بلغاء العرب يتبارون فيها بإبداعهم، وكان لها أثرها الفعال في إيجاد لغة عربية مثالية مشتركة، خلت - في الأغلب الأعم - مما تختص به لهجات القبائل، وكانت وسيلتهم في التحاور والتباري.

وليس من شك في أن هذه القنوات ستبطل آثارها الإيجابية آثار القنوات الضارة التي تستعمل العامية أو تكثر منها في برامجها، وتشرُ القيم والاتجاهات الثقافية الخبيثة، وتكثر من إذاعة ما يصبُ في خدمة العولمة التي اخترقت جوانب مختلفة في حياتنا العربية الإسلامية؛ فقد تعلّمنا من ديننا أن الحق يغلبُ الباطل، وقد تكفلَ بذلك فقال: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ

الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٤٥)،

وأوضحَ ﷺ أن الزبد يذهب جفاءً، قال تعالى:

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ

الإعرابية الواضحة التي تستحقها بين الأمم.

أقول:

هذه من أهم الدوافع بل المسوغات - كما سمّتها الدراسة - التي تدفعنا نحن - بني العروبة - إلى الحفاظ على هويتنا اللغوية الفصيحة سواء أكانت مفرداتها قرآنية أم بشرية، والاطمئنان على مستقبلها.

ونحن نرى أن أصحاب فكرة انقراض العربية يتناقضون مع أنفسهم؛ وذلك حين نجدهم يروجون لانقراض هذه اللغة المغرقة في القدم والأصالة؛ والمعترف بها لغة عالمية في الأمم المتحدة؛ والتي يتحدث بها مئات الملايين من البشر، وفي المقابل يحتون أبناء القوميات الأخرى الذين كتب عليهم أن يعيشوا في ظلال قوميات أكبر على إحياء كل ما يميز هويتهم كاللغة والتراث المادي والفكري.

وإذا كان أبناء الأقليات في العالم الذين انقرضت لغاتهم أو اقتصر استعمالها على بيئاتهم يحرصون على

بقائها حية، وإدخالها في مجالات حياتهم؛ سعيًا إلى كسب اعتراف العالم بما يميز هويتهم اللغوية لهم، فكيف لنا أن ننجر وراء مزاعم زائفة، أو نتخيل في أضغاث أحلامنا اندثار عربيتنا الفصيحة؟!؛ فهي ستبقى حية بما تمتلك من تاريخ مديد، وتراث عريق، وتجارب حيوية، وبيئات متنوعة، وقداسة عربية وإسلامية، وما إلى ذلك من عوامل تضمن لها البقاء والاستمرار والارتقاء، وأبناء غير لا يمكن لهم البتة أن يطرأ على بالهم الحيد عنها أيا كانت الظروف والأحوال.

وإذا كان العرب القدماء من الأجداد والآباء قد نجحوا في الحفاظ على لغتنا العربية فإننا نرى أن هناك ما يدفع أبناءهم في هذه الأيام إلى الاستمرار في التمسك بلغتهم العربية الفصيحة، وأنهم لن يعدموا الوسائل التي ستعينهم على إبقائها حية على الألسنة، وسيأتي اليوم - بمشيئة الله - الذي يُعيدون لها فيه سيرتها الأولى في

وإنَّ مما يُطمئننا على هذا الاتجاهِ المقاومِ ما نلاحظُهُ في الأقطارِ العربيةِ من انتشارِ جمعياتِ حمايةِ اللغةِ العربيةِ، ورواجِ ظاهرةِ المؤتمراتِ والندواتِ واللقاءاتِ العامةِ والخاصةِ التي تغلي مراجلها بالمناقشاتِ والفكرِ وردودِ الأفعالِ والمقترحاتِ، وهي ظواهرُ صحيَّةٌ نراها تعبرُ عن إشعاعِ تنويريٍّ يبصرُ العربَ بما يتهددُ وجودهم، ويَعْبِيُ لمرحلةٍ نهضويةٍ قادمة.

ومما يصبُّ في روافدِ الطمأنينةِ أيضاً ما نلاحظُهُ مِنْ تَمَسُّكِ كثيرٍ من أبناءِ العروبةِ الدارسينَ في غيرِ بلادِ العربِ بلغتهم؛ فهؤلاءِ عندما يعودون نرى منهم مَنْ هو أكثرُ الناسِ تَحَمُّساً إلى التعليمِ باللغةِ العربيةِ، ورفدِها بكلِّ ما يجعلها قادرةً على التعبيرِ عن مختلفِ العلومِ ومناحي الحضارة؛ الأمرُ الذي رأينا مثاله الحيَّ عند رفاةِ الطهطاويِّ في بدايةِ العصرِ الحديثِ، ونراه يَتَكَرَّرُ في كثيرٍ من أساتذةِ الجامعاتِ

النَّماءِ والتعبيرِ عن المستجداتِ في مختلفِ المجالاتِ، وإنَّ لنا في تنبهِ علماءِ الأمةِ ومفكرِها إلى خطرِ هذهِ الدعاوى والمخططاتِ الهدامةِ ما سيُبقِي هذهِ اللغةَ حيَّةً، وقادرةً على التعبيرِ عن مضامينِ أهلها.

وبصفةٍ عامةٍ فإنَّ علماءِ العربيةِ في مختلفِ أصقاعهم ما يزالون يبذلون الجهودَ الفرديةَ والجماعيةَ للنهوضِ بلغةِ العربِ الفصيحةِ، وجعلها قادرةً على الاستجابةِ لمتطلباتِ التطورِ العلميِّ والحضاريِّ، وفي جانبٍ آخرٍ يجابهون ما تتعرضُ له من مؤامراتٍ يهدفُ أصحابها إلى إضعافها، وإزاحتها إلى مقاماتٍ مختلفةٍ؛ وهم حين يفعلون ذلك ينطلقون من إيمانهم بأنَّ العربيةَ الفصيحةَ هي مُمَيِّزُهُمُ اللسانيُّ بينَ غيرهم، وأنَّ الحِفاظَ عليها يتطلَّبُ المداومةَ على استعمالها في مختلفِ المجالاتِ وإنمائها؛ لِتَتِمَكَّنَ من مَدِّ أهلها بما يحتاجونه من ألفاظٍ وتراكيبٍ جديدة.

فَنَعَلَمَ أَبْنَاءَنَا بَلِغَتَنَا ذَاتِ التَّارِيخِ التَّلِيدِ،
وَالْغَنِيَةِ بِتَرَاثِهَا الْغَزِيرِ فِي الْعُلُومِ وَالْفِكْرِ
وَالثَّقَافَةِ وَالْحَضَارَةِ، وَالْمُتَمِيزَةِ بِعِلَاقَاتِهَا
الْمُتَشَابِكَةِ بِغَيْرِهَا مِنْ لُغَاتِ الْكَوْنِ
كُلُّهُ: إِنَّ شَرْقًا وَإِنْ غَرْبًا، وَإِنْ شَمَالًا
وَإِنْ جَنُوبًا.

أ.د. صادق عبدالله أبو سليمان

عضو المجمع المراسل من فلسطين

الَّذِينَ تَلَقَّوْا تَعْلِيمَهُمْ فِي خَارِجِ الْوُطَنِ
الْعَرَبِيِّ؛ حَيْثُ نَلَمْسُ كَثْرَةَ أَسْئَلَتِهِمْ عَنْ
الْمُقَابَلَاتِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْمُصْطَلَحَاتِ
الْأَجْنِبِيَّةِ، وَتَلَهَّفَ نَفَرٌ إِلَى تَعْلِيمِ طُلُوبَتِهِمْ
بِلُغَةِ بِلَادِهِمْ؛ فَهَمَّ - كَمَا يَقُولُونَ - تَعَلَّمُوا
بِلُغَةَ بِلَادِ الْغَرْبَةِ، وَأَنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ
الْبِلَادِ يُعَلِّمُونَ أَبْنَاءَهُمْ بِلُغَاتِهِمْ الْأُمِّ؛ فَمَا
أَجْدَرَنَا أَنْ نُجَدِّدَ طَرِيقَ الْأَسْلَافِ فِينَا،

حواشي الدراسة ومراجعتها

- (١) هكذا الأصل، ولعل المراد: لغة الكتابة.
- (٢) ابن فارس، أحمد: الصحابي، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٣٣-٤٧.
- (٣) عنوان الباب: "باب القول في اختلاف لغات العرب"، ينظر السابق: ص ٢٨-٣٢.
- (٤) ينظر المصدر السابق: ص ٣٥-٤٠.
- (٥) ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد علي التجار، دار الكتب المصرية، ١٩٥٢م، ج ٢/ ص ٥-١٠.
- (٦) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق الدكتور أحمد محمد قاسم، لم تُذكر دار النشر، ١٣٩٦هـ، ص ٥٦-٥٧.
- (٧) يُنظر أبو سليمان، صادق عبد الله محمد: اتجاهات الفكر اللغوي في مصر العربية في ثلاثينيات القرن العشرين، رسالة دكتوراه بإشراف: أ.د. عبد المجيد أحمد عابدين، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٢٧٥.
- (٨) المصدر السابق: ص ٢٦٩-٢٧٦.
- (٩) يقال: لَحِقَ الشيءَ بمعنى أدركه، لَحِقَ لَحَاقًا وَلَحَقًا وَلُحُوقًا، وَأَلْحَقَ إِلْحَاقًا، أي أدركه إدراكًا.
- (١٠) القرآن الكريم، سورة الأنفال: من الآية ٣٠.
- (١١) القرآن الكريم، فاطر: من الآية ١٠.
- (١٢) القرآن الكريم، آل عمران، الآيتان: ١٧٣-١٧٤.
- (١٣) القرآن الكريم، غافر، من الآية ٥١.
- (١٤) القرآن الكريم، سورة يوسف، الآيتان: ١١٠-١١١.
- (١٥) القرآن الكريم، الحجر، الآية: ٩.

- (١٦) القرآن الكريم، سورة إبراهيم،
الآية: ٤.
- (١٧) القرآن الكريم، سورة الشعراء،
الآيات: ١٩٢ - ١٩٥.
- (١٨) القرآن الكريم، سورة فصلت،
الآية: ٣.
- (١٩) القرآن الكريم، سورة يوسف،
الآية: ٢.
- (٢٠) القرآن الكريم، سورة الأحقاف،
الآية: ١٢.
- (٢١) القرآن الكريم، سورة فصلت،
الآية: ٤٢.
- (٢٢) هناك مثل نقوله في فلسطين قد
يصب في خدمة هدفنا في هذا السياق،
وهو: "عشان عين تكرم مرج عيون"،
وقد تُنطق "عشان" "عشان" أو "مشان"،
وتفصيحه "لأجل عين تكرم مرج
عيون"، وهو كناية عن احترام الكثير
أو تشريفهم لأجل أحد الأعيان، إنه
المعنى العاطفي القريب الذي نلمسه في
ترنم الشادية: "من أجل عينيك عشقت
الهوى"؛ واللغة - كما هو معروف - كل
- لا يتجزأ، والحفاظ على جزء منها
يتطلب الحفاظ على أجزائها الباقية.
- (٢٣) الراجحي، عبده علي: فقه اللغة
في الكتب العربية، دار النهضة
العربية - بيروت، ١٣٩٢هـ - =
١٩٧٢م، ص ١٢.
- (٢٤) يرد هذا الرأي ما يمكن أن يكون
دليلاً لنفي مسألة القداسة عند بعض
الناس؛ فاللغة - كما يمكن أن يقال -
تحتوي على الألفاظ الدينية والأخرى
الفاجرة والماجنة وغيرها مما ليس له
علاقة بالقداسة؛ لذا فليس معقولاً أن
نعم القداسة كل اللغة، وإذا بدا أن هذا
دليل معقول فإن حديثنا عن تغليب
الصفة التي تميز اللغة على صفاتها
الأخرى نراه يصب في صالح القائلين
بقداسة العربية، وإن مما قد يدعمهم
مجيء الأديان لتنظيم حياة الناس في
مختلف أشكالها؛ الأمر الذي يجعلها
تعبّر عن مختلف الدلالات الحسنة
والسيئة: تحت على الحسن، وتنتهى عن
الفاحش والمُنكر.
- (٢٥) القرآن الكريم، الجن: الآية ١٨.

الأزهر، ط ٦ / ١٣٨٠هـ — = ١٩٦٠م،
ص ٦١.

(٣٠) السابق: ص ٢٣٢.

(٣١) السابق: ص ٢٥١.

(٣٢) السابق: ص ٢٦٢.

(٣٣) محمد بن إدريس الشافعي:
الرسالة، تحقيق وشرح أحمد محمد
شاكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى
البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ١/
١٣٥٨هـ — ١٩٤٠م، ج ١/ ص ٤٨-
٤٩.

(٣٤) القرآن الكريم، الحِجْر: الآية ٩.

(٣٥) أحيّاز جمع نادرٌ لكلمة (حَيِّز)
بتشديد الياء وكسرهما، وأصله من
الواو، والحَيِّز: تخفيف الحَيِّز مثل هَيِّنَ
وهَيَّنَ ولَيِّنَ ولَيَّنَ، أما الجمع على
القياس فحَيَّائِز، بالهمز، في قول
سيبويه، وحَيَّائِزُ، بالواو، في قول آخر،
وكان القياس أن يكون أَحْوَازَ بمنزلة
الميت والأموات ولكنهم فرقوا بينهما
كراهة الالتباس، يُنظَرُ لسان العرب،
مادة: (ح.و.ز).

(٢٦) وَرَدَ هَذَا الْمِصْرَاغُ عَجْزًا مُكْرَّرًا
عند غير شاعر كالنابغة الذبياني
والشافعي وأبي العتاهية وذو الرُّمَّة،
وعبد الله بن المبارك، ومحمود الورَّاق،
وذكره جرير: (إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ
ذَكَورُ)، وكذلك عمر بن أبي ربيعة:
(إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُشَيِّعُ)،
يُنظَرُ: المجمع الثقافي - أبو ظبي:
الموسوعة الشعرية، الإصداران الأول
والثالث - قرص مُدمَج.

(٢٧) القرآن الكريم، آل عمران،
الآيات: ٧-٩.

(٢٨) ظاظا، حسن: كلام العرب: من
قضايا اللغة العربية، مطبعة المصري،
الإسكندرية، ط ١ / ١٩٧١م، ص ٨٩.

(٢٩) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل
الإعجاز (في علم المعاني)، صحح
أصله الإمام محمد عبده، والشيخ محمد
محمود الشنقيطي، ووقف على تصحيح
طبعة، وعلق حواشيه ناشره: السيد
محمد رشيد رضا، مكتبة ومطبعة
محمد علي صبيح وأولاده بميدان

في مقامه السامي، حيث يوحى إليه؛ وقد تكررت الإشارة إلى هذه الميزة في غير مقام قرآني ومن ذلك، قال تعالى: "قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليّ..." الكهف، من الآية: ١١٠. وفي سورة

أخرى قال ﷺ: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ مَا

صَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

الْهَوَىٰ ۝٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ عَلَّمَهُ

شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾ ﴿

النَّجْمُ، (الآيات: ١-٦)، ونحن مأمورون

بطاعة رسولنا الكريم، وقد أمرنا ﷺ

بذلك في مواطن كثيرة من قرآنه

الكريم، حيث قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ

وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ

﴿٣٢﴾ آل عمران، الآية: ٣٢. وقال:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ

فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۝٨٠﴾ النساء،

الآية: ٨٠. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة

وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون" النور، الآية: ٥٦. وعليه فإن طاعة

الرسول- وهي من طاعة الله- تتطلب

(٣٦) تَمَعَّنَ- عزيزي القارئ- العلاقة

الدلالية بين الحال أو الحالة وجمعهما

أحوال وحالات، والتحول وجمعها

التحولات، والحوَلُ بمعنى عام أو سنة،

والجمع أحوال وحوول وحوُول،

وحوالُ الدهر: تَغْيَرُهُ وصرْفُهُ، وتَحَوَّلَ

عن الشيء: زال عنه إلى غيره، وحالَ

الرجل يَحْوُلُ مثل تَحَوَّلَ من موضع

إلى موضع، وحال إلى مكان آخر؛ أي

تَحَوَّلَ، والحال في النحو وصفٌ منقولة،

أي؛ غير ثابت.

(٣٧) القرآن الكريم، سورة آل عمران،

من الآية: ١٤٠.

(٣٨) أرحية: جمعٌ نادرٌ لكلمة (رَحَى)

وهي آلةٌ حجريةٌ دائريةٌ يُطْحَنُ بها،

وتُجَمَعُ أيضًا: أَرْحٍ وأَرْحَاءٌ وَرُجِيٌّ

وَرَجِيٌّ، وتثنيتها رَحِيَان، وَرَحَوَانِ.

(٣٩) قال رسولُ الله ﷺ: "تركْتُ فيكم

ما إنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا:

كتابُ الله وسُنَّتِي"، مع مراعاة أن هناك

اختلافًا في لفظِ الحديثِ أو مَضمونِهِ،

وننبه في هذا المقام إلى أن الرسول

الكريم، وإن كان بشرًا فهو يفترق عنهم

- منا الحفاظ على لغة لسانه وتقديسها. (٤٠) عبد الكريم خليفة: اللغة العربية لغة المعمورة الفاضلة في القرن الحادي والعشرين، دراسة مقدمة إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته (٧١)، ٢٠٠٤-٢٠٠٥م.
- (٤١) القرآن الكريم، سورة الأنفال، من الآيتين: ٦٢-٦٣.
- (٤٢) القرآن الكريم، سورة الفتح، من الآية: ١٠.
- (٤٣) القرآن الكريم، سورة يوسف، من الآية: ٢١.
- (٤٤) أقترح استعمال كلمة (المرسال) بدلاً من المصطلح الحاسوبي الذائع (الإيميل) أو البريد الإلكتروني؛ فنقول: المرسال، والتراسل، وقد يصفها من يشاء بقوله: المرسال البرقي أو الحاسوبي أو الإلكتروني، وهلم جراً، وإن كنت أفضل عدم تقييدها بوصف.
- (٤٥) القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية: ٨.
- (٤٦) القرآن الكريم، سورة الرعد، من الآية: ١٧.

